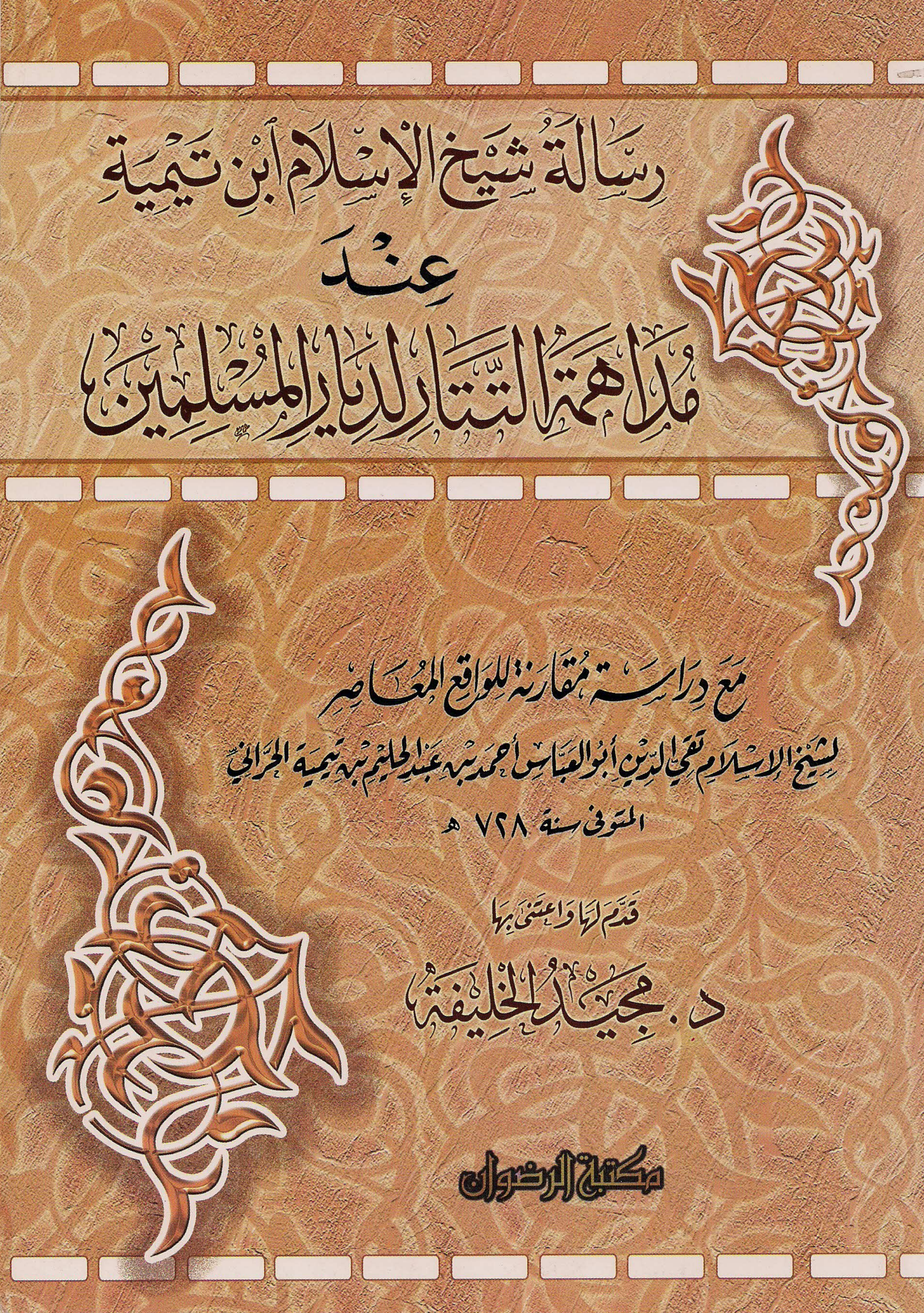

رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية
عند
مداهمة التتار لديار المسلمين
مع دراسة مقارنة للواقع المعاصر
لشيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني
المتوفى سنة ٧٢٨ هـ
قدم لها واعتنى بها
د. مجيد الخليفة
مكتبة الرضوان

رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية
عند مداهمة التتار لديار المسلمين

مع دراسة مقارنة للواقع المعاصر

قدم لها واعتنى بها

د. مجيد الخليفة

مكتبة الرضوان

مقدمة التحقيق

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فهو المهتد ومن يضلل فلا هادي له ، واشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله عليه أفضل الصلاة والسلام ، وعلى آله الأطهار وصحابته الأخيار .

لقد قدر الله تعالى أن تستباح بغداد مرتين ، المرة الأولى على يد التتار في القرن السابع الهجري ، وبالتحديد في عام ٦٥٦هـ ، وكان المعين لهم في ذلك ابن العقلمي الرافضي ، ومن سار خلفه من أصحاب الأحقاد على الخلافة العباسية ، ثم ها هي بغداد تستباح مرة أخرى على يد تتار العصر الحديث ، ومن سار في ركابهم من دعاة الرفض والصنـرية الجديدة ، وتتالت القنابل على بغداد ، وبعد أن دخلتها الجيوش الغازية ، استبيحت عاصمة الخلافة مرة أخرى ، فأحرقت مؤسساتها الرسمية ، ودمرت وهبت مكتباتها ، وقتل علمائها ومشايخها وأطبائها ، ثم كان الأمر على ذلك بعد أن سلمت مقاليد الأمور للعملاء والخونة ، الذين استباحوا كل المحرمات ، وقتلوا من يجدونه من أهلها المخلصين ، وهكذا فالتاريخ يعيد نفسه ، المكان هو المكان ، والتتار لم تتغير اساليبهم ، والخونة لم يتوبوا من خيانتهم :

أحلّ الكفرُ بالإسلام ضيماً ... يطول عليه للدين النحيب
فحقٌ ضائعٌ ، وحمى مباحٌ ... وسيفٌ قاطعٌ ودمٌ صبيب
وكم من مسلمٍ أمسى سليباً ... ومسلمةٍ لها حرمٌ سليب
أمورٌ لو تأملهن طفلٌ ... لَطفَّل في عوارضه المشيب
أتسبى المسلمات بكل ثغرٍ ... وعيش المسلمين إذاً يطيب

أمــا للهِ والإســلامِ حــــقٌّ يدافع عنه شبَّـــان وشيب

فقل لذوي البصائر حيث كانوا أجيبوا الله ويحكمُ أجيبوا

فالتاريخ عظة وعبرة ، والأيام تذكر بعضها بعضاً .

وقد أمر الله تعالى عباده بالنظر للتاريخ ، والتفكر والتـــدبر في أحـــوال الأمـــم ، والسبب الذي أدى إلى هلاك بعضها : ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُـــنَنٌ فَـــسِيرُواْ فِـــي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٣٧] ، وقال جـــلَّ شأنه : ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَـــسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾ [الحج : ٤٦] ، فكما أن أسباب الهلاك والهزيمة بينة وواضحة ، فكذلك أسباب النصر والعزة والتمكين ، فعلى المسلم أن يعي أن الذي نصر المسلمين على التتار بعين جالوت ، ما نصرهم إلا بعد أن أخذوا بأسباب النصر على عدوهم ، واتحد العلماء والأمراء في سبيل تحقيق هذا الهدف ، فكان من أهم أسباب هذا النصر هو اتحاد العز بن عبد السلام وابن تيمية من جهة ، مع أمراء المسلمين في ذلك الوقت من أمثال المظفر وقطز والظاهر بيبرس ومـــن سار في ركابهم من العامة ، فكان النصر المؤزر للمسلمين ، ورد الله تعالى العدو بكيده لم ينال لم بلاد الشام ومصر شيئاً .

والرسالة التي نضعها بين يدي القارئ اليوم هي أنموذج لذلك الجهد المشترك الذي بذل بين العلماء والأمراء لرد كيد التتار عن ديار المسلمين ، ففيها عبر عظيمة وتحليـــل سديد من قبل شيخ الإسلام ابن تيمية للوقائع في زمنه ، بما كان عليه في زمـــن الـــنبي صلى الله عليه وسلم ، والشيء نفسه يمكن أن يقال على عصرنا الحاضر ، إذ يكفي — أيها القارئ الكريم — أن تقارن بين ما قاله شيخ الإسلام ابن تيميه (رحمه الله) وبـــين ما يحصل في زمننا هذا ، وهنا تتجلى عظمة مثل هؤلاء الرجـــال ، فهـــم لا يكتبـــون

لزمانهم فقط ، وإنما يكتبون لكل زمان ، وسوف يحس القارئ – كما أحسست أنا – كأن ابن تيمية يتكلم عن زمننا هذا ، وأقوال الناس ورأيهم بغزو الأمريكان لديار المسلمين ، فالغزاة هم الغزاة ، والمكان هو المكان ، ولكننا لا نرى نفس الرجال ، ولا نسمع لفتاوى العلماء ، وحماس الأمراء .

من هم التتار :

التتار أو التتر شعب بدوي يعيش بأطراف بلاد الصين ، وهم سكان براري مشهورون بالشر والغدر ، ويأكلون لحوم الحيوانات كلها حتى الكلاب والخنازير ، وهوايتهم المحببة صيد الأسود والحيوانات المتوحشة .

وبعض المؤرخين يسميهم المغول ويرى أن التتار فرع من المغول لكن المغول بقيادة جنكيز خان تغلبوا على التتار فتلاشوا في دولة واحدة .

أما عقيدتهم فهم يعبدون الكواكب ويسجدون للشمس، ويرون أن (تَنْكَرَى) وهو الرب الذي يعلو السماء الزرقاء يبارك خطواتهم ، وأنهم خلقوا ليحكموا العالم كله ، ولهذا سمى زعيمهم نفسه بجنكيز خان أي حاكم العالم .

وينطلقون من قاعدة (إن في السماء رباً واحداً ، فليكن هناك حاكم واحد على الأرض) وهو الذي يسمونه الخان ، وهذه العقيدة الراسخة والشحن الديني الضال كانوا يدخلون الحروب ويفتكون بالشعوب ، ولهذا ، الحرب حرب عقيدة، فلا تعجب أخي ، حينما ترى تتار هذا العصر ينطلقون من عقائدهم الإنجيلية أو مبادئهم الصهيونية.

بدأ ملك جنكيز خان في الصين عام ٥٩٩هـ ، ثم بدأ ملكه بالتوسع في أوائل القرن السابع حتى فتح (بكين) عام ٦١٢هـ ، أما في جهة الغرب فقد وصل ملكه إلى أواسط آسيا عام ٦٠٧هـ .

وكان لبعض الكفاءات المسلمة وللأسف دور في بناء إمبراطورية التتار ، منهم القائد العسكري (جعفر الخواجة) ، والتاجر (حسن حاجي) ، ويصف بعض المؤرخين التتار بأهم قوم عراض الوجوه ، صغار الأطراف سمر الألوان تصل إليهم أخبار الأمم ، ولا تصل أخبارهم إلى الأمم ، وقلما يقدر جاسوس أن يتمكن منهم لأن الغريب لا يشتبه بهم .

سقوط بغداد :

بدأ اجتياح التتار للعالم الإسلامي في بداية القرن السابع الهجري ، إلا أن هذا الاجتياح كان بطيئاً بسبب وقوف الدولة الخوارزمية بوجهه ، ولكن سقوط هذه الدولة في سنة ٦٥٣هـ هو الذي عجل بسقوط بغداد فيما بعد ، وكانت الخلافة العباسية تعاني أشد درجات الضعف والوهن ، ولم يعد الخليفة العباسي فيها بقادر على إدارة دفة الدونة ، فأرسل له هولاكو رسالة يطالبه فيها بالاستسلام دون شروط ، وكان من أهم العوامل التي عجلت بسقوط بغداد بيد التتار – بالاضافة إلى ضعف الخلافة – هو سوء البطانة والحاشية التي كان يستعين فيها الخليفة العباسي ، فلم يكن وزيره ابن العلقمي إلا منفذاً لمخططات الأعداء ، فقام بأهمال الجيش ، وأثار الفتنة بين أهل بغداد نفسها أكثر من مرة ، وكان عوناً للتتار فيما بعد على دخول بغداد بسبب مشوراته المدسوسة التي كان يبغي منها تمكين العدو من رقاب المسلمين .

وبعد استنفاذ الطرق الدبلوماسية ، وفشل المراسلات المتكررة بين هولاكو والمستعصم ، اتخذ هولاكو القرار بالهجوم على بغداد ، فسار إليها في مائتي ألف مقاتل ، وكان بصحبته جمع ممن ينتسب إلى الإسلام منهم نصير الدين الطوسي الفيلسوف والذي كان أحد مستشاري هولاكو ، ومنهم أمير شيراز ، ووصل الجيش التتري بغداد في محرم سنة ٦٥٦هـ ، ولم تمضِ بعد ذلك إلا بضع أسابيع حتى دخل التتار بغداد وقتلوا كل من استطاعوا قتله من أهلها ، وكان ضحايا هذه المجزرة الجماعية ثمانمائة ألف إنسان ، وقيل مليون وثمانمائة ألف ، وقيل مليونين ، ولم ينج من الناس إلا أهل الذمة من اليهود

والنصارى ، وبعض التجار ، ومن التجأ إلى دار الوزير ابن العلقمي ، وامتلأت بغداد بالجثث حتى صارت كالتلال في الطرقات، وتعفنت الأشلاء ، وتلوث الهواء فانتشر الطاعون في بغداد فمات منه خلق كثير.

وكان كثير من الناس قد اختبؤوا في الآبار وقنوات الأوساخ والنجاسات ، فلما نودي في بغداد بالأمان خرجوا كأنهم الموتى من قبورهم لا يعرف الوالد ولده، ثم أخذهم الطاعون فألحقهم بمن سبقهم ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

وبعد سقوط بغداد ، فوض الطاغية هولاكو أمرها إلى الأمير (علي بهادر) ، وجعل معه الوزير ابن العلقمي الذي كان يطمع في الملك ، فأخزاه الله في الدنيا (ولعذاب الآخرة أخزى) ، ولما لم يحصل له الملك انقطع في داره فمات هماً وكمداً ، ثم تولى الوزارة بعده ولده الخبيث فأخذه الله سريعاً وألحقه بوالده ، ثم قرر هولاكو مغادرة بغداد بعد أصبحت خرابًا فخرج إلى أذربيجان ، وبدأت استعداداته للمرحلة الثالثة من الحملة ، وهي غزو سوريا وفلسطين ومصر .

معركة عين جالوت :

لقد استمر زحف التتار نحو الشرق ، فسقطت حلب بأيديهم بعد حصارها ، وفعلوا فيها مثلما فعلوا ببغداد ، ثم تتالت حواضر الشام بالسقوط ، فسلمت حماه ، هرب حاكم دمشق منها ، فدخلها التتار أيضاً وكان ذلك سنة ٦٥٨هـ .

بعد سقوط دمشق أرسل هولاكو رسالة تهديد ووعيد إلى المظفر قطز حاكم مصر ، فاتخذ الأخير موقفاً حازماً ، وقرر مقاتلة التتار بعد أن استعان بالعلماء على حث الناس على الجهاد والمقاتلة وبذل المال في سبيل الله ، وتجهيز الجيوش لملاقاة الأعداء .

وكان هولاكو بعد استيلائه على دمشق قد بلغه نبأ وفاة أخيه (مانغو) ملك التتار ، وكان هولاكو يطمع في الملك ، فغادر الشام متوجهاً إلى الصين لحضور

اجتماع رؤساء التتار لانتخاب الملك الجديد ، وعيَّن مكانه أحد الأمراء الكبار وهو (كتبغا نوين)، وجاءت الأخبار إلى (كتبغا نوين) بخروج الجيش المصري إلى الشام فتوجه بجيشه إليهم ، وسار الفريقان حتى التقيا في عين جالوت في الخامس والعشرين من رمضان عام ٦٥٨هـ .

استمرت المعركة لمدة ثلاثة أيام كانت سجالاً بين الطرفين ، وفي اليوم الثالث رغب قطز جنده على الفداء والتضحية والشهادة ، فقاتلوا قتالاً شديداً ، وقاتل قطز حتى قتل جواده ، فوقف ثابتاً على الأرض في موضعه في قلب الجيش ، واشتد القتال ، وحمي النزال ، وأزهقت النفوس ، وتطايرت الرؤوس ، وتقدم قطز بنفسه أمام الأمراء والجيش ، ورمى خوذته على الأرض ، وأطلق صرخة قوية سجلها التاريخ ، فصاح بأعلى صوته (واااا إسلاماه) ، واندفع نحو نيران التتار ، كالسيل الجرار .

ورأى جنود الإسلام قائدهم أمامهم ، يقاتل كالأسد ، فالتفوا حوله ، واستبسلوا في القتال ، وانقضوا على التتار فخلخلوا صفوفهم ، وكسروهم كسرة عظيمة ، ثم التقى الجيشان مرة أخرى عند بيسان ، ونزل الطاغية (كتبغا نوين) بنفسه إلى المعركة ، فهزمه الله ، وعرفت سيوف الحق طريقها إلى رقاب الكفار ، فقتل المسلمون منهم جمعاً كثيراً ، وفر الباقون مدبرين ، والحمد لله رب العالمين .

وبعد هذه المعركة تطهر الشام من التتار ، وأنكفوا على أنفسهم ، ولم يقدروا على شيء .

عودة التتار للشام :

في عام ٦٩٩هـ ووصلت الأخبار أن التتار يعدون العدة لغزو الشام ، فخاف الناس ، وغلت المواصلات ، وأصبح إيجار الخيل من حماة إلى دمشق مائتي درهم ، وخرج الناصر بجيشه من مصر إلى الشام ، ففرح الناس ، ودخل الناصر دمشق ، ثم

خرج والتقى بالتتار في وادي الخزندار ، فهُزم المسلمون ، وهرب الناصر ، وقُتل جماعة من الأمراء ورجعت العساكر إلى مصر .

ثم سار التتار إلى دمشق ، فاجتمع الأعيان وكان معهم الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية ، فقرروا الذهاب إلى قازان ملك التتار ، ليطلبوا منه الأمان لأهل دمشق ، فكلمه ابن تيمية كلاماً شديداً نفع الله به المسلمين (وكان قازان بوذياً ثم أسلم عام ٦٩٤هـ وأسلم معه ٧٠ ألف من التتار ومع هذا جاؤوا لقتال المسلمين) .

ثم رأى بعض الأمراء تسليم القلعة للتتار حماية للسكان ، فوقف ابن تيمية أمامهم وطلب من صاحب القلعة عدمَ تسليمها لو لم يبق فيها إلا حجرٌ واحد ، فأخذ صاحب القلعة برأي ابن تيمية وكان فيه مصلحة للمسلمين ، ودخل قازان دمشق وخُطِب فيها باسمه على منبر دمشق ، وقام بفرض الأموال الكثيرة على أهلها .

ثم بدأ بعض التتار ببعض أعمال القتل والنهب والسبي ، فخرج ابن تيمية مع جماعة إلى ملك التتار قازان ولم يحصل لهم الاجتماع به ، واستعصت القلعة على قازان ، فعاد إلى العراق وترك نائبه بولاي في الشام في ستين ألف مقاتل ، ثم توجه جماعة من التتار جهة الغَور فعاثوا فيه الفساد ، فخرج ابن تيمية إلى بولاي وكلمه في أسارى المسلمين الذين معه ، ففك أسر كثير منهم .

وصلت الأخبار بقدوم الجيوش المصرية إلى الشام ، فخرج بولاي ومن معه من التتار من دمشق وبقيت دمشق بلا جند ولا حرس ، فنودي في أهلها أن يخرجوا بأسلحتهم ويبيتون على الأسوار والأبواب يحرسون البلد ، فخرجوا على الأسوار ، وكان ابن تيمية يدور على الأسوار كل ليلة ، يحرض الناس على الصبر والقتال ، ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط، (هكذا يكون تفاعل الأمة المؤمنة مع الأزمات).

ولما عادت الحياة إلى دمشق دار ابن تيمية وأصحابه على الخانات فكسروا أنية الخمر وأباريق ، ثم خرج ابن تيمية مع الأفرم نائب دمشق إلى بلاد جبيل وكسروان لتأديبهم على دعمهم التتار وإغارتهم على المسلمين ، فخرج رؤساؤهم إلى ابن تيمية فأظهروا الطاعة والندم ورد كل ما أخذوا .

ثم عاد الأفرم إلى دمشق وصدرت الأوامر أن يعلق الناس الأسلحة بالدكاكين، وأن يتعلموا الرمي ، فبنيت الإماجات (وهي معسكرات التدريب) في دمشق ، وأمر الفقهاء أن يتعلموا الرمي استعداداً لأي ظرف طاريء ، وهكذا يجب أن تستعد الأمة في أوقات الرخاء ، حتى إذا نزلت الشدائد انبرى من أبنائها من يدافع عنها ويرد عنها كيد الأعداء .

وفي صفر سنه ٧٠٠ هـ جاءت الأخبار بعودة التتار إلى بلاد الشام فاضطرب الناس وزادات أجرة النقل ، وبيعت الأمتعة والثياب بأرخص الأثمان .

وجلس ابن تيمية في مجلسه في الجامع في الثاني من صفر ، وحرض المؤمنين على القتال وبذل الأموال ، ونهاهم عن الفرار ، فسكن الناس وهدأت الأوضاع .

ثم قام ابن تيمية بأعمال جليلة في هذه الأزمة فخرج إلى نائب الشام والجيش المرابطين ، فثبتهم وطيب قلوبهم ، ووعدهم بنصر الله ، وبات عندهم ليلة ، وعاد إلى دمشق .

ثم جاءت الأخبار برجوع السلطان الناصر محمد وجيشه إلى مصر ، فسأل أميرُ الشام ابنَ تيمية أن يسير إليه ، فركب الشيخ حتى وصل إلى السلطان وطلب منه النصرة ، وخوفه بالله ، وهدده بأنه إذا تأخر فإن أهل الشام سيجعلون عليهم سلطاناً غيرَه يدافع عنهم ، ثم أقام شيخ الإسلام بمصر ثمانية أيام يحث الناس على الجهاد والخروج .

فاستجاب السلطان والناس لدعوة الشيخ ، وتحرك الجيش المصري إلى الشام ، واستعد المسلمون للحرب ، ثم جاءت الأخبار بانسحاب التتار إلى العراق وكفى الله المؤمنين القتال .

ابن تيمية والتتار :

الكثير من الناس يجهل الجوانب العملية من حياة الشيخ ، فإنهم عرفوه عالمًا ومؤلفًا ومفتيًا ، من خلال مؤلفاته المنتشرة ، مع أن له مواقف مشهودة في مجالات أخرى عديدة ساهم فيها مساهمة قوية في نصرة الإسلام وعزة المسلمين فمن ذلك: جهاده بالسيف وتحريضه المسلمين على القتال ، بالقول والعمل ، فقد كان يجول بسيفه في ساحات الوغى ، مع أعظم الفرسان الشجعان ، والذين شاهدوه في القتال أثناء فتح عكا عجبوا من شجاعته وفتكه بالعدو .

والرسالة التي نقدمها اليوم هي نموذج واضح لجهاد هذا العالم الفاضل في سبيل الله تعالى ، خاصة بعد أن بدأ التخاذل من قبل المنافقين والمثبطين يسري بين الناس ، فكتب لهم هذه الرسالة ، وأشار عليهم بقتال التتار بكل قوة وحماس ، حتى قال في ذلك : « إذا رأيتموني في ذلك الجانب (أي في جانب العدو) وعلى رأسي مصحف فاقتلوني » ، وقدر الله تعالى أن يرد كيد التتار في ذلك العام ، فقد أرسل الله تعالى عليهم برداً شديداً ، فرق جموعهم ، وأهلاك أنعامهم ، ورد كيدهم عن المسلمين ، وكان ذلك سنة ٦٩٩هـ .

والرسالة مذكورة في أكثر من كتاب (مجموع الفتاوى : ٤١٠/٢٨ – ٤٦٧ ، العقود الدرية : ١٣٦– ١٩١) . فأترك القارئ لكي يتدبر معانيها ، ويقف عند فوائدها وبدائعها .

د. مجيد الخليفة

١ صفر ١٤٢٨هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

إلَى مَنْ يَصِلُ إلَيْهِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ :

سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ؛ فَإِنَّا نَحْمَدُ إلَيْكُمْ اللَّهَ الَّذِي لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ ، وَهُوَ لِلْحَمْدِ أَهْلٌ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَنَسْأَلُهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى صَفْوَتِهِ مِنْ خَلِيقَتِهِ وَخِيرَتِهِ مِنْ بَرِيَّتِهِ مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا .

أَمَّا بَعْدُ :

فَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَأَعَزَّ جُنْدَهُ وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ : ﴿ **وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا** ﴾ [الأحزاب : ٢٥] ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُحَقِّقُ لَنَا التَّمَامَ بِقَوْلِهِ : ﴿ **وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا . وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا** ﴾ [الأحزاب : ٢٦- ٢٧] ،

فَإِنَّ هَذِهِ الْفِتْنَةَ الَّتِي اُبْتُلِيَ بِهَا الْمُسْلِمُونَ مَعَ هَذَا الْعَدُوِّ الْمُفْسِدِ الْخَارِجِ عَنْ شَرِيعَةِ الإِسْلاَمِ : قَدْ جَرَى فِيهَا شَبِيهٌ بِمَا جَرَى لِلْمُسْلِمِينَ مَعَ عَدُوِّهِمْ ، عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَغَازِي الَّتِي أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهَا كُتُبَهُ ، وَابْتَلَى بِهَا نَبِيَّهُ وَالْمُؤْمِنِينَ : مِمَّا هُوَ أُسْوَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ؛ فَإِنَّ نُصُوصَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ اللَّذَيْنِ هُمَا دَعْوَةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَنَاوَلاَنِ عُمُومَ الْخَلْقِ بِالْعُمُومِ اللَّفْظِيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ أَوْ بِالْعُمُومِ الْمَعْنَوِيِّ .

وَعُهُودُ اللَّه فِي كِتَابِه وَسُنَّة رَسُولِه تَنَالُ آخرَ هَذه الأمَّة كَمَا نَالَتْ أَوَّلَهَا ، وَإِنَّمَا قَصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا قصَصَ مَنْ قَبْلَنَا منْ الأمَم لتَكُونَ عبْرَةً لَنَا ، فَنُشَبِّهُ حَالَنَا بحَالِهِمْ وَنَقيسُ أَوَاخِرَ الأمَم بأَوَائلهَا ، فَيكُونُ للْمُؤْمن منَ الْمُتَأَخِّرِينَ شَبَهٌ بمَا كَانَ للمُؤْمنِ منَ الْمُتَقَدِّمينَ ، وَيَكُونُ للْكَافر وَالْمُنَافق منْ الْمُتَأَخِّرينَ شَبَهٌ بمَا كَانَ للْكَافر وَالْمُنَافق منْ الْمُتَقَدِّمينَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى لَمَّا قَصَّ قصَّةَ يُوسُفَ مُفَصَّلَةً وَأَجْمَلَ قصَصَ الأنْبيَاء ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ **لَقَدْ كَانَ في قَصَصِهِمْ عبْرَةٌ لأُولي الألْبَاب مَا كَانَ حَديثًا يُفْتَرَى** ﴾ [يوسف : ١١١] أَيْ هَذه الْقَصَصُ الْمَذْكُورَةُ في الْكتَاب لَيْسَتْ بمَنْزلَة مَا يُفْتَرَى منْ الْقَصَص الْمَكْذُوبَة ، كَنَحْو مَا يُذْكَرُ في الْحُرُوب منْ السِّيَر الْمَكْذُوبَة ، وَقَالَ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ قصَّةَ فرْعَوْنَ : ﴿ **فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخرَة وَالأولَى ، إنَّ في ذَلكَ لَعبْرَةً لمَنْ يَخْشَى** ﴾ .

وَقَالَ في سيرَة نَبيِّنَا مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّم مَعَ أَعْدَائه ببَدْر وَغَيْرهَا : ﴿ **قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ في فئَتَيْن الْتَقَتَا فئَةٌ تُقَاتلُ في سَبيل اللَّه وَأُخْرَى كَافرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْن وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بنَصْره مَنْ يَشَاءُ إنَّ في ذَلكَ لَعبْرَةً لأُولي الأبْصَار** ﴾ [آل عمران : ١٣] ، وَقَالَ تَعَالَى في مُحَاصَرَته لبَني النَّضير : ﴿ **هُوَ الَّذي أَخْرَجَ الَّذينَ كَفَرُوا منْ أَهْل الْكتَاب منْ ديَارهمْ لأَوَّل الْحَشْر مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ منَ اللَّه فَأَتَاهُمُ اللَّهُ منْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسبُوا وَقَذَفَ في قُلُوبهمُ الرُّعْبَ يُخْربُونَ بُيُوتَهُمْ بأَيْديهمْ وَأَيْدي الْمُؤْمنينَ فَاعْتَبرُوا يَا أُولي الأبْصَار** ﴾ [الحشر : ٢] فَأَمَرَنَا أَنْ نَعْتَبرَ بأَحْوَال الْمُتَقَدِّمينَ عَلَيْنَا منْ هَذه الأمَّة ، وَممَّنْ قَبْلَهَا منْ الأمَم ، وَذَكَرَ في غَيْر مَوْضعٍ : أَنَّ سُنَّتَهُ في ذَلكَ سُنَّةٌ مُطَّردَةٌ وَعَادَتُهُ مُسْتَمرَّةٌ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ **لَئنْ لَمْ يَنْتَه الْمُنَافقُونَ وَالَّذينَ في قُلُوبهمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجفُونَ في الْمَدينَة لَنُغْريَنَّكَ بهمْ ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ فيهَا إلاَّ قَليلاً . مَلْعُونينَ أَيْنَمَا ثُقفُوا أُخذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتيلاً . سُنَّةَ اللَّه في الَّذينَ خَلَوْا منْ قَبْلُ وَلَنْ**

تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب : ٦٠ – ٦٢] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ **وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا . سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ** لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب : ٦٠ – ٦٢] .

وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ دَأْبَ الْكَافِرِينَ مِنْ الْمُسْتَأْخِرِينَ ، كَدَأْبِ الْكَافِرِينَ مِنْ الْمُسْتَقْدِمِينَ فَيَنْبَغِي لِلْعُقَلاَءِ أَنْ يَعْتَبِرُوا بِسُنَّةِ اللَّهِ وَأَيَّامِهِ فِي عِبَادِهِ وَدَأْبُ الأُمَمِ وَعَادَاتُهُمْ ، لاَ سِيَّمَا فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَادِثَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي طَبَّقَ الْخَافِقَيْنِ خَبَرُهَا ، وَاسْتَطَارَ فِي جَمِيعِ دِيَارِ الأَسْلاَمِ شَرَرُهَا ، وَأَطْلَعَ فِيهَا النِّفَاقُ نَاصِيَةَ رَأْسِهِ ، وَكَشَّرَ فِيهَا الْكُفْرُ عَنْ أَنْيَابِهِ وَأَضْرَاسِهِ ، وَكَادَ فِيهِ عَمُودُ الْكِتَابِ أَنْ يَجْتَثَّ وَيَخْتَرِمَ ، وَحَبْلُ الأَيْمَانِ أَنْ يَنْقَطِعَ وَيَصْطَلِمَ ، وَعُقْرُ دَارِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَحِلَّ بِهَا الْبَوَارُ ، وَأَنْ يَزُولَ هَذَا الدِّينُ بِاسْتِيلاَءِ الْفَجَرَةِ التَّتَارِ ، وَظَنَّ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنَّ مَا وَعَدَهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا ، وَأَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ حِزْبُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ، وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَظَنُّوا ظَنَّ السَّوْءِ ، وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ، وَنَزَلَتْ فِتْنَةٌ تَرَكَتْ الْحَلِيمَ فِيهَا حَيْرَانَ ، وَأَنْزَلَتْ الرَّجُلَ الصَّاحِيَ مَنْزِلَةَ السَّكْرَانِ ، وَتَرَكَتْ الرَّجُلَ اللَّبِيبَ لِكَثْرَةِ الْوَسْوَاسِ لَيْسَ بِالنَّائِمِ وَلاَ الْيَقْظَانِ ، وَتَنَاكَرَتْ فِيهَا قُلُوبُ الْمَعَارِفِ وَالأَخْوَانِ ، حَتَّى بَقِيَ لِلرَّجُلِ بِنَفْسِهِ شُغْلٌ عَنْ أَنْ يُغِيثَ اللَّهْفَانَ ، وَمَيَّزَ اللَّهُ فِيهَا أَهْلَ الْبَصَائِرِ وَالأَيقَانِ ، مِنْ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَوْ نِفَاقٌ ، وَضَعْفُ إِيمَانٍ وَرَفَعَ بِهَا أَقْوَامًا إِلَى الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَةِ ، كَمَا خَفَضَ بِهَا أَقْوَامًا إِلَى الْمَنَازِلِ الْهَاوِيَةِ ، وَكَفَّرَ بِهَا عَنْ آخَرِينَ أَعْمَالَهُمْ الْخَاطِئَةَ ، وَحَدَثَ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَلْوَى ، مَا جَعَلَهَا قِيَامَةً مُخْتَصَرَةً مِنْ الْقِيَامَةِ الْكُبْرَى فَإِنَّ النَّاسَ تَفَرَّقُوا فِيهَا مَا بَيْنَ شَقِيٍّ وَسَعِيدٍ ، كَمَا يَتَفَرَّقُونَ كَذَلِكَ فِي الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ، وَفَرَّ الرَّجُلُ فِيهَا مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ؛ إِذْ كَانَ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ، وَكَانَ مِنْ النَّاسِ مَنْ أَقْصَى هِمَّتِهِ النَّجَاةُ بِنَفْسِهِ ، لاَ يَلْوِي عَلَى مَالِهِ وَلاَ وَلَدِهِ وَلاَ عُرْسِهِ ، كَمَا أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ فِيهِ قُوَّةٌ عَلَى تَخْلِيصِ الأَهْلِ وَالْمَالِ ، وَآخَرَ فِيهِ زِيَادَةُ مَعُونَةٍ لِمَنْ هُوَ مِنْهُ بِبَالٍ ، وَآخَرُ مَنْزِلَتُهُ

مَنْزِلَةُ الشَّفِيعِ الْمُطَاعِ ، وَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ فِي الْمَنْفَعَةِ وَالدِّفَاعِ ، وَلَمْ تَنْفَعِ الْمَنْفَعَةُ الْخَالِصَةُ مِنَ الشَّكْوَى ، إِلاَّ الأَيمَانَ وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ وَالْبِرَّ وَالتَّقْوَى ، وَبُلِيَتْ فِيهَا السَّرَائِرُ ، وَظَهَرَتِ الْخَبَايَا الَّتِي كَانَتْ تُكِنُّهَا الضَّمَائِرُ ، وَتُبَيِّنُ أَنَّ الْبَهْرَجَ مِنَ الأَقْوَالِ وَالأَعْمَالِ ، يَخُونُ صَاحِبَهُ أَحْوَجَ مَا كَانَ إِلَيْهِ فِي الْمَآلِ ، وَذَمَّ سَادَتَهُ وَكُبَرَاءَهُ مَنْ أَطَاعَهُمْ ، فَأَضَلُّوهُ السَّبِيلاَ ، كَمَا حَمِدَ رَبَّهُ مَنْ صِدْقٍ فِي إِيمَانِهِ ، فَاتَّخَذَ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ، وَبَانَ صِدْقُ مَا جَاءَتْ بِهِ الأَثَارُ النَّبَوِيَّةُ مِنَ الأَخْبَارِ بِمَا يَكُونُ ، وَوَاطَأَتْهَا قُلُوبُ الَّذِينَ هُمْ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ مُحَدَّثُونَ ، كَمَا تَوَاطَأَتْ عَلَيْهِ الْمُبَشِّرَاتُ الَّتِي أُرِيهَا الْمُؤْمِنُونَ ، وَتَبَيَّنَ فِيهَا الطَّائِفَةُ الْمَنْصُورَةُ الظَّاهِرَةُ ، عَلَى الدِّينِ الَّذِينَ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ ، وَلاَ مَنْ خَذَلَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

حَيْثُ تَحَزَّبَتْ النَّاسُ ثَلاَثَةَ أَحْزَابٍ : حِزْبٌ مُجْتَهِدٌ فِي نَصْرِ الدِّينِ ، وَآخَرُ خَاذِلٌ لَهُ ، وَآخَرُ خَارِجٌ عَنْ شَرِيعَةِ الأَسْلاَمِ ، وَانْقَسَمَ النَّاسُ مَا بَيْنَ مَأْجُورٍ وَمَعْذُورٍ ، وَآخَرُ قَدْ غَرَّهُ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ، وَكَانَ هَذَا الامْتِحَانُ تَمْيِيزًا مِنَ اللَّهِ وَتَقْسِيمًا : ﴿ **لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا** ﴾ [الأحزاب : ٢٤] .

وَوَجْهُ الاعْتِبَارِ فِي هَذِهِ الْحَادِثَةِ الْعَظِيمَةِ : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، وَشَرَعَ لَهُ الْجِهَادَ إِبَاحَةً لَهُ أَوَّلاً ، ثُمَّ إِيجَابًا لَهُ ثَانِيًا ؛ لَمَّا هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَصَارَ لَهُ فِيهَا أَنْصَارٌ يَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، فَغَزَا بِنَفْسِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُدَّةَ مَقَامِهِ بِدَارِ الْهِجْرَةِ ، وَهُوَ نَحْوُ عَشْرِ سِنِينَ : بِضْعًا وَعِشْرِينَ غَزْوَةً ، أَوَّلُهَا غَزْوَةُ بَدْرٍ وَآخِرُهَا غَزْوَةُ تَبُوكَ : أَنْزَلَ اللَّهُ فِي أَوَّلِ مُغَازِيهِ (سُورَةَ الأَنْفَالِ) وَفِي آخِرِهَا (سُورَةَ بَرَاءَةَ) ، وَجَمَعَ بَيْنَهُمَا فِي الْمُصْحَفِ ؛ لِتَشَابُهِ أَوَّلِ الأَمْرِ

وَآخره ، كَمَا قَالَ أَميرُ الْمُؤْمنينَ عُثْمَانُ : لَمَّا سُئلَ عَنْ الْقرَانِ بَيْنَ السُّورَتَيْنِ منْ غَيْرِ فَصْلٍ بِالْبَسْمَلَة[1] .

وَكَانَ الْقتَالُ منْهَا في تسْعِ غَزَوَات ، فَأَوَّلُ غَزَوَات الْقتَالِ : بَدْرٌ وَآخرُهَا حنين وَالطَّائفُ ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ فيهَا مَلائكَتَهُ كَمَا أَخْبَرَ به الْقُرْآنُ ؛ وَلِهَذَا صَارَ النَّاسُ يَجْمَعُونَ بَيْنَهُمَا في الْقَوْلِ ، وَإِنْ تَبَاعَدَ مَا بَيْنَ الْغَزْوَتَيْنِ مَكَانًا وَزَمَانًا ؛ فَإِنَّ بَدْرًا كَانَتْ في رَمَضَانَ في السَّنَة الثَّانيَة منْ الْهجْرَة ، مَا بَيْنَ الْمَدينَة وَمَكَّةَ شَاميَّ مَكَّةَ ، وَغَزْوَةُ حنين في آخر شَوَّالَ منْ السَّنَة الثَّامنَة ، وحنين وَادٍ قَرِيبٌ منْ الطَّائف شَرْقيَّ مَكَّةَ ، ثُمَّ قَسَمَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ غَنَائمَهَا بِالْجعْرَانَة وَاعْتَمَرَ منْ الْجعْرَانَة ، ثُمَّ حَاصَرَ الطَّائفَ ، فَلَمْ يُقَاتلْهُ أَهْلُ الطَّائف زَحْفًا وَصُفُوفًا ، وَإِنَّمَا قَاتَلُوهُ منْ وَرَاءِ جدَارٍ ، فَآخرُ غَزْوَةٍ كَانَ فيهَا الْقتَالُ زَحْفًا وَاصْطفَافًا : هيَ غَزْوَةُ حنين .

---

(١) يشير شيخ الإسلام رحمه الله إلى حديث ابن عباس قال : ((قلت لعثمان بن عفان : ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال، وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين ، فقرنتم بينهما ، و لم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتموها في السبع الطول ، ما حملكم على ذلك ؟ فقال عثمان : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يأتي عليه الزمان ، وهو تنزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب ، فيقول : ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، وإذا نزلت عليه الآية ، فيقول : ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أوائل ما أنزلت بالمدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، فظننت أنها منها ، فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم و لم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ، و لم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم فوضعتها في السبع الطول)) . أخرجه الترمذي ، كتاب التفسير ، باب تفسير سورة التوبة : رقم ٣٠١١ . وأشار الشيخ الألباني إلى أن الحديث ضعيف كما في ضعيف الترمذي .

وَكَانَتْ غَزْوَةُ بَدْرٍ أَوَّلَ غَزْوَةٍ ظَهَرَ فِيهَا الْمُسْلِمُونَ عَلَى صَنَادِيدِ الْكُفَّارِ ، وَقَتَلَ اللَّهُ أَشْرَافَهُمْ وَأَسَرَ رُءوسَهُمْ مَعَ قِلَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَضَعْفِهِمْ ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا ثَلاَثَمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ لَيْسَ مَعَهُمْ إلاَّ فَرَسَانِ ، وَكَانَ يَعْتَقِبُ الاثْنَانِ وَالثَّلاَثَةُ عَلَى الْبَعِيرِ الْوَاحِدِ ، وَكَانَ عَدُوُّهُمْ بِقَدْرِهِمْ أَكْثَرُ مِنْ ثَلاَثِ مَرَّاتٍ فِي قُوَّةٍ وَعِدَّةٍ وَهَيْئَةٍ وَخُيَلاَءَ، فَلَمَّا كَانَ مِنْ الْعَامِ الْمُقْبِلِ غَزَا الْكُفَّارُ الْمَدِينَةَ ، وَفِيهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ فِي نَحْوٍ مِنْ رُبُعِ الْكُفَّارِ ، وَتَرَكُوا عِيَالَهُمْ بِالْمَدِينَةِ ثُمَّ يَنْقُلُوهُمْ إِلَى مَوْضِعٍ آخَرَ ، وَكَانَتْ أَوَّلاً الْكَرَّةُ لِلْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ ثُمَّ صَارَتْ لِلْكُفَّارِ ، فَانْهَزَمَ عَامَّةُ عَسْكَرِ الْمُسْلِمِينَ ، إلاَّ نَفَرًا قَلِيلاً حَوْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُمْ مَنْ قُتِلَ وَمِنْهُمْ مَنْ جُرِحَ ، وَحَرَصُوا عَلَى قَتْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، حَتَّى كَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ ، وَشَجُّوا جَبِينَهُ ، وَهَشَّمُوا الْبَيْضَةَ عَلَى رَأْسِهِ ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهَا شَطْرًا مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ **وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ** ﴾ [آل عمران : ١٢١] ، وَقَالَ فِيهَا : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ** ﴾ [آل عمران : ١٥٥]، وَقَالَ فِيهَا : ﴿ **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الأَخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٥٢] ، وَقَالَ فِيهَا : ﴿ **أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [آل عمران : ١٦٥] .

وَكَانَ الشَّيْطَانُ قَدْ نَعَقَ فِي النَّاسِ : أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ تَزَلْزَلَ لِذَلِكَ فَهَرَبَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ ثَبَتَ فَقَاتَلَ ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ**

قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٤].

وَكَانَ هَذَا مَثَلَ حَالِ الْمُسْلِمِينَ لَمَّا انْكَسَرُوا فِي الْعَامِ الْمَاضِي ، وَكَانَتْ هَزِيمَةُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْعَامِ الْمَاضِي بِذُنُوبٍ ظَاهِرَةٍ وَخَطَايَا وَاضِحَةٍ : مِنْ فَسَادِ النِّيَّاتِ وَالْفَخْرِ وَالْخُيَلَاءِ وَالظُّلْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَالأعْرَاضِ عَنْ حُكْمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَعَنْ الْمُحَافَظَةِ عَلَى فَرَائِضِ اللَّهِ وَالْبَغْيِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ بِأَرْضِ الْجَزِيرَةِ وَالرُّومِ ، وَكَانَ عَدُوُّهُمْ فِي أَوَّلِ الأَمْرِ رَاضِيًا مِنْهُمْ بِالْمُوَادَعَةِ وَالْمُسَالَمَةِ ، شَارِعًا فِي الدُّخُولِ فِي الإِسْلَامِ ، وَكَانَ مُبْتَدِئًا فِي الأَيْمَانِ وَالأَمَانِ ، وَكَانُوا هُمْ قَدْ أَعْرَضُوا عَنْ كَثِيرٍ مِنْ أَحْكَامِ الأَيْمَانِ ، فَكَانَ مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ بِالْمُؤْمِنِينَ أَنْ ابْتَلَاهُمْ بِمَا ابْتَلَاهُمْ بِهِ ؛ لِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيُنِيبُوا إِلَى رَبِّهِمْ ، وَلِيَظْهَرَ مِنْ عَدُوِّهِمْ مَا ظَهَرَ مِنْهُ مِنْ الْبَغْيِ وَالْمَكْرِ وَالنَّكْثِ وَالْخُرُوجِ عَنْ شَرَائِعِ الإِسْلَامِ ، فَيَقُومُ بِهِمْ مَا يَسْتَوْجِبُونَ بِهِ النَّصْرَ ، وَبِعَدُوِّهِمْ مَا يَسْتَوْجِبُ بِهِ الانْتِقَامَ ، فَقَدْ كَانَ فِي نُفُوسِ كَثِيرٍ مِنْ مُقَاتِلَةِ الْمُسْلِمِينَ وَرَعِيَّتِهِمْ مِنْ الشَّرِّ الْكَبِيرِ مَا لَوْ يَقْتَرِنُ بِهِ ظَفَرٌ بِعَدُوِّهِمْ - الَّذِي هُوَ عَلَى الْحَالِ الْمَذْكُورَةِ - لَأَوْجَبَ لَهُمْ ذَلِكَ مِنْ فَسَادِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا مَا لَا يُوصَفُ ، كَمَا أَنَّ نَصْرَ اللَّهِ لِلْمُسْلِمِينَ يَوْمَ بَدْرٍ كَانَ رَحْمَةً وَنِعْمَةً وَهَزِيمَتُهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ كَانَ نِعْمَةً وَرَحْمَةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ((لَا يَقْضِي اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ فَشَكَرَ اللَّهَ كَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ فَصَبَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ))[1].

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ أحمد في مسنده : رقم ١٨١٧١ ؛ وأخرجه مسلم بلفظ آخر في صحيحه ، كتاب الزهد والرقائق ، باب المؤمن أمره كله خير : رقم ٥٣١٨ .

فَلَمَّا كَانَتْ حَادِثَةُ الْمُسْلِمِينَ عَامَ أَوَّلٍ شَبِيهَةً بِأُحُد ، وَكَانَ بَعْدَ أُحُد بِأَكْثَر مِنْ سَنَة – وَقِيلَ بِسَنَتَيْنِ – قَدْ ابْتُلِيَ الْمُسْلِمُونَ عَامَ الْخَنْدَق ، كَذَلِكَ فِي هَذَا الْعَامِ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ بِعَدُوِّهِمْ كَنَحْوِ مَا ابْتُلِيَ الْمُسْلِمُونَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَامَ الْخَنْدَق وَهِيَ غَزْوَةُ الأَحْزَاب الَّتِي أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهَا (سُورَةَ الأَحْزَاب) ، وَهِيَ سُورَةٌ تَضَمَّنَتْ ذِكْرَ هَذِه الْغُزَاة الَّتِي نَصَرَ اللَّهُ فِيهَا عَبْدَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَعَزَّ فِيهَا جُنْدَهُ الْمُؤْمِنِينَ وَهَزَمَ الأَحْزَابَ – الَّذِينَ تَحَزَّبُوا عَلَيْهِ – وَحْدَهُ بِغَيْرِ قِتَال ؛ بَلْ بِثَبَات الْمُؤْمِنِينَ بِإِزَاء عَدُوِّهِمْ ، ذَكَرَ فِيهَا خَصَائِصَ رَسُولِ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحُقُوقَهُ وَحُرْمَتَهُ وَحُرْمَةَ أَهْلِ بَيْتِه ؛ لَمَّا كَانَ هُوَ الْقَلْبُ الَّذِي نَصَرَهُ اللَّهُ فِيهَا بِغَيْرِ قِتَالٍ ، كَمَا كَانَ ذَلِكَ فِي غَزْوَتِنَا هَذِه سَوَاءً ، وَظَهَرَ فِيهَا سِرُّ تَأْيِيد الدِّين كَمَا ظَهَرَ فِي غَزْوَة الْخَنْدَق ، وَانْقَسَمَ النَّاسُ فِيهَا كَانْقِسَامِهِمْ عَامَ الْخَنْدَق .

وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُنْذُ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَعَزَّهُ بِالْهِجْرَة وَالنُّصْرَة صَارَ النَّاسُ ثَلاثَةَ أَقْسَام : قِسْمًا مُؤْمِنِينَ وَهُمْ الَّذِينَ آمَنُوا بِه ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ، وَقِسْمًا كُفَّارًا ، وَهُمْ الَّذِينَ أَظْهَرُوا الْكُفْرَ بِه ، وَقِسْمًا مُنَافِقِينَ ، وَهُمْ الَّذِينَ آمَنُوا ظَاهِرًا لاَ بَاطِنًا ، وَلِهَذَا افْتَتَحَ (سُورَةَ الْبَقَرَة) بِأَرْبَعِ آيَات فِي صِفَة الْمُؤْمِنِينَ ، وَآيَتَيْنِ فِي صِفَة الْكَافِرِينَ ، وَثَلاثَ عَشْرَةَ آيَةً فِي صِفَة الْمُنَافِقِينَ ، وَكُلٌّ وَاحِد مِنْ الأِيمَان وَالْكُفْر وَالنِّفَاق لَهُ دَعَائِمُ وَشُعَبٌ ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْه دَلائِلُ الْكِتَاب وَالسُّنَّة ، وَكَمَا فَسَّرَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الْحَدِيث الْمَأْثُور عَنْهُ فِي الأِيمَان وَدَعَائِمِه وَشُعَبِه .

فَمِنْ النِّفَاق مَا هُوَ أَكْبَرُ وَيَكُونُ صَاحِبُهُ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنْ النَّار ؛ كَنِفَاق عَبْد اللَّه بْن أَبِي وَغَيْرِه ؛ بِأَنْ يُظْهِرَ تَكْذِيبَ الرَّسُول ، أَوْ جُحُودَ بَعْضِ مَا جَاءَ بِه أَوْ بُغْضَهُ ، أَوْ عَدَمَ اعْتِقَاد وُجُوب اتِّبَاعِه ، أَوْ الْمَسَرَّة بِانْخِفَاض دِينِه ، أَوْ الْمُسَاءَة بِظُهُور دِينِه ، وَنَحْو ذَلِكَ : مِمَّا لاَ يَكُونُ صَاحِبُهُ إلاَّ عَدُوًّا لِلَّه وَرَسُولِه ، وَهَذَا الْقَدْرُ كَانَ مَوْجُودًا فِي زَمَن رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا زَالَ بَعْدَهُ ؛ بَلْ هُوَ بَعْدَهُ أَكْثَرُ مِنْهُ عَلَى عَهْدِه ؛ لِكَوْن مُوجِبَات

الأيمَانِ عَلَى عَهْدِه أَقْوَى ، فَإِذَا كَانَتْ مَعَ قُوَّتِهَا - وَكَانَ النِّفَاقُ مَعَهَا مَوْجُودًا - فَوُجُودُهُ فِيمَا دُونَ ذَلِكَ أَوْلَى .

وَكَمَا أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَعْلَمُ بَعْضَ الْمُنَافِقِينَ ، وَلاَ يَعْلَمُ بَعْضَهُمْ ، كَمَا بَيَّنَهُ قَوْلُهُ : ﴿ **وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ** ﴾ [التوبة : ١٠١] كَذَلِكَ خُلَفَاؤُهُ بَعْدَهُ وَوَرَثَتُهُ : قَدْ يَعْلَمُونَ بَعْضَ الْمُنَافِقِينَ وَلاَ يَعْلَمُونَ بَعْضَهُمْ ، وَفِي الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الإِسْلاَمِ مِنْ عَامَّةِ الطَّوَائِفِ مُنَافِقُونَ كَثِيرُونَ فِي الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ ، وَيُسَمَّوْنَ (الزَّنَادِقَة) ، وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي قَبُولِ تَوْبَتِهِمْ فِي الظَّاهِرِ ؛ لِكَوْنِ ذَلِكَ لاَ يُعْلَمُ إِذْ هُمْ دَائِمًا يُظْهِرُونَ الإِسْلاَمَ ، وَهَؤُلاَءِ يَكْثُرُونَ فِي الْمُتَفَلْسِفَةِ : مِنْ الْمُنَجِّمِينَ وَنَحْوِهِمْ ، ثُمَّ فِي الأَطِبَّاءِ ، ثُمَّ فِي الْكُتَّابِ أَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ ، وَيُوجَدُونَ فِي الْمُتَصَوِّفَةِ وَالْمُتَفَقِّهَةِ ، وَفِي الْمُقَاتِلَةِ وَالأُمَرَاءِ ، وَفِي الْعَامَّةِ أَيْضًا ، وَلَكِنْ يُوجَدُونَ كَثِيرًا فِي نِحَلِ أَهْلِ الْبِدَعِ ؛ لاَ سِيَّمَا الرَّافِضَةُ ، فَفِيهِمْ مِنْ الزَّنَادِقَةِ وَالْمُنَافِقِينَ مَا لَيْسَ فِي أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النِّحَلِ ، وَلِهَذَا كَانَتْ الخرمية وَالْبَاطِنِيَّةُ وَالْقَرَامِطَةُ وَالأَسْمَاعِيلِيَّةُ والنصيرية ، وَنَحْوِهِمْ مِنْ الْمُنَافِقِينَ الزَّنَادِقَة : مُنْتَسِبَةً إِلَى الرَّافِضَةِ ، وَهَؤُلاَءِ الْمُنَافِقُونَ فِي هَذِهِ الأَوْقَاتِ لِكَثِيرٍ مِنْهُمْ مَيْلٌ إِلَى دَوْلَةِ هَؤُلاَءِ التَّتَارِ ؛ لِكَوْنِهِمْ لاَ يُلْزِمُونَهُمْ شَرِيعَةَ الإِسْلاَمِ ؛ بَلْ يَتْرُكُونَهُمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ ، وَبَعْضُهُمْ إِنَّمَا يَنْفِرُونَ عَنْ التَّتَارِ لِفَسَادِ سِيرَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا ، وَاسْتِيلاَئِهِمْ عَلَى الأَمْوَالِ ، وَاجْتِرَائِهِمْ عَلَى الدِّمَاءِ وَالسَّبْيِ ؛ لاَ لأَجْلِ الدِّينِ ، فَهَذَا ضَرْبُ النِّفَاقِ الأَكْبَرِ .

وَأَمَّا النِّفَاقُ الأَصْغَرُ : فَهُوَ النِّفَاقُ فِي الأَعْمَالِ وَنَحْوِهَا : مِثْلَ أَنْ يَكْذِبَ إِذَا حَدَّثَ ، وَيُخْلِفَ إِذَا وَعَدَ ، وَيَخُونَ إِذَا أُؤْتُمِنَ ، أَوْ يَفْجُرَ إِذَا خَاصَمَ ، فَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ((آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا أُؤْتُمِنَ خَانَ)) [١] ، وَفِي رِوَايَةٍ صَحِيحَةٍ : ((وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ)) [٢] .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ((أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ)) [٣] .

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ : الأَعْرَاضُ عَنْ الْجِهَادِ ، فَإِنَّهُ مِنْ خِصَالِ الْمُنَافِقِينَ ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالْغَزْوِ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ)) رَوَاهُ مُسْلِمٌ [٤] ، وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ (سُورَةَ بَرَاءَةَ) الَّتِي تُسَمَّى الْفَاضِحَةَ ؛ لأَنَّهَا فَضَحَتْ الْمُنَافِقِينَ ، أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : هِيَ الْفَاضِحَةُ مَا زَالَتْ تَنْزِلُ : ((وَمِنْهُمْ وَمِنْهُمْ حَتَّى ظَنُّوا أَنْ لاَ يَبْقَى أَحَدٌ إِلاَّ ذُكِرَ فِيهَا)) [٥].

---

(١) البخاري ، كتاب الإيمان ، باب علامة المنافق : رقم ٣٢ ؛ مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان خصال المنافق : رقم ٨٩ .

(٢) أخرجه بهذه الزيادة ، مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان خصال المنافق : رقم ٩٠ ؛ مسند أحمد : ٣٩٧/٢ .

(٣) البخاري ، كتاب افيمان ، باب علامة المنافق : رقم ٣٣ ؛ مسلم ، كتاب الإيمان : رقم ٨٨ .

(٤) الحديث عن أبي هريرة ، أخرجه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب ذم من مات ولم يحدث نفسه بالغزو : رقم ٣٥٣٣ ؛ النسائي ، كتاب الجهاد ، باب التشديد في ترك الجهاد : رقم ٣٠٤٦ ؛ أبو داود ، كتاب الجهاد ، كراهية ترك الغزو : رقم ٢١٤١ .

(٥) البخاري ، كتاب التفسير ، باب الجلاء الإخراج من أرض إلى أرض : رقم ٤٥٠٣ ؛ مسلم ، كتاب التفسير ، باب في سورة براءة : رقم ٥٣٥٩ .

وَعَنْ الْمِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ قَالَ : ((هِيَ سُورَةُ الْبُحُوث ؛ لأَنَّهَا بَحَثَتْ عَنْ سَرَائِرِ الْمُنَافِقِينَ))[١] ، وَعَنْ قتادة قَالَ : ((هِيَ الْمُثِيرَةُ ؛ لأَنَّهَا أَثَارَتْ مَخَازِي الْمُنَافِقِينَ))[٢] ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : ((هِيَ الْمُبَعْثِرَةُ))[٣] ، وَالْبَعْثَرَةُ وَالأَثَارَةُ مُتَقَارِبَان ، وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ : ((أَنَّهَا المقشقشة ، لأَنَّهَا تُبْرِئُ مِنْ مَرَضِ النِّفَاقِ))[٤]، يُقَالُ : تَقَشْقَشَ الْمَرِيضُ إِذَا بَرَأَ : قَالَ الأَصْمَعِيُّ : وَكَانَ يُقَالُ لِسُورَتَيْ الأَخْلاَصِ : المقشقشتان ؛ لأَنَّهُمَا يُبَرِّئَانِ مِنْ النِّفَاقِ .

وَهَذِهِ السُّورَةُ نَزَلَتْ فِي آخِرِ مَغَازِي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَزْوَةِ تَبُوكَ عَامَ تِسْعٍ مِنْ الْهِجْرَةِ ، وَقَدْ عَزَّ الإِسْلاَمُ وَظَهَرَ ، فَكَشَفَ اللَّهُ فِيهَا أَحْوَالَ الْمُنَافِقِينَ، وَوَصَفَهُمْ فِيهَا بِالْجُبْنِ وَتَرْكِ الْجِهَادِ ، وَوَصَفَهُمْ بِالْبُخْلِ عَنْ النَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالشُّحِّ عَلَى الْمَالِ ، وَهَذَانِ دَاءَانِ عَظِيمَانِ : الْجُبْنُ وَالْبُخْلُ ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((شَرُّ مَا فِي الْمَرْءِ شُحٌّ هَالِعٌ وَجُبْنٌ خَالِعٌ)) حَدِيثٌ صَحِيحٌ[٥] ؛ وَلِهَذَا قَدْ يَكُونَانِ مِنْ الْكَبَائِرِ الْمُوجِبَةِ لِلنَّارِ ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ : ﴿ **وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾ [آل عمران : ١٨٠] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ **وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** ﴾ [الأنفال : ١٦].

---

(١) أخرجه ابن سعد ، الطبقات : ١٦٣/٣ ؛ الطبري ، التفسير : ١٣٩/١٠ ؛ الحاكم ، المستدرك : ١٢٩/٢ وصححه.

(٢) زاد المسير : ١٤٤/٣ ؛ الدر المثور : ١٠٦/٥ .

(٣) ابن هشام ، السيرة النبوية : ٢٤٢/٥ ؛ القرطبي ، التفسير : ٦١/٨ .

(٤) البرهان في علوم القرآن : ٢٦٩/١ .

(٥) أخرجه أبو داود ، كتاب الجهاد ، باب في الجرأة والجبن : ٢١٥٠ ؛ مسند أحمد : رقم ٧٦٦٨ .

وَأَمَّا وَصْفُهُمْ بِالْجُبْنِ وَالْفَزَعِ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ **وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ . لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ** ﴾ [التوبة :٥٦- ٥٧] ، فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُمْ وَإِنْ حَلَفُوا إِنَّهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا هُمْ مِنْهُمْ ؛ وَلَكِنْ يَفْزَعُونَ مِنَ الْعَدُوِّ : ﴿ **لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً** ﴾ يَلْجَئُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْمَعَاقِلِ وَالْحُصُونِ الَّتِي يَفِرُّ إِلَيْهَا مَنْ يَتْرُكُ الْجِهَادَ ، أَوْ (مَغَارَاتٍ وَهِيَ جَمْعُ مَغَارَةٍ ، وَمَغَارَاتٌ سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّ الدَّاخِلَ يَغُورُ فِيهَا أَيْ يَسْتَتِرُ ؛ كَمَا يَغُورُ الْمَاءُ : ﴿ **أَوْ مُدَّخَلاً** ﴾ ، وَهُوَ الَّذِي يَتَكَلَّفُ الدُّخُولَ إِلَيْهِ ، إِمَّا لِضِيقِ بَابِهِ أَوْ لِغَيْرِ ذَلِكَ ، أَيْ مَكَانًا يَدْخُلُونَ إِلَيْهِ ، وَلَوْ كَانَ الدُّخُولُ بِكُلْفَةٍ وَمَشَقَّةٍ : لَوَلَّوْا عَنِ الْجِهَادِ ﴿ **إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ** ﴾ أَيْ يُسْرِعُونَ إِسْرَاعًا لاَ يَرُدُّهُمْ شَيْءٌ، كَالْفَرَسِ الْجَمُوحِ الَّذِي إِذَا حَمَلَ لاَ يَرُدُّهُ اللِّجَامُ ، وَهَذَا وَصْفٌ مُنْطَبِقٌ عَلَى أَقْوَامٍ كَثِيرِينَ فِي حَادِثَتِنَا ، وَفِيمَا قَبْلَهَا مِنَ الْحَوَادِثِ وَبَعْدَهَا .

وَكَذَلِكَ قَالَ فِي (سُورَةِ مُحَمَّدٍ) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ **فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ** ﴾ [محمد : ٢٠] أَيْ فَبُعْدًا لَهُمْ : ﴿ **طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ** ﴾ [محمد : ٢١] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ﴾ [الحجرات : ١٥] فَحَصَرَ الْمُؤْمِنِينَ فِيمَنْ آمَنَ وَجَاهَدَ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ **لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ . إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ** ﴾ [التوبة : ٤٤ — ٤٥] ، فَهَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ

بِأَنَّ الْمُؤْمِنَ لاَ يَسْتَأْذِنُ الرَّسُولَ فِي تَرْكِ الْجِهَادِ ؛ وَإِنَّمَا يَسْتَأْذِنُهُ الَّذِي لاَ يُؤْمِنُ ، فَكَيْفَ بِالتَّارِكِ مِنْ غَيْرِ اسْتِئْذَانٍ .

وَمَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ وَجَدَ نَظَائِرَ هَذَا مُتَضَافِرَةً عَلَى هَذَا الْمَعْنَى ، وَقَالَ فِي وَصْفِهِمْ بِالشُّحِّ : ﴿ **وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنْفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ** ﴾ [التوبة : ٥٤] ، فَهَذِهِ حَالُ مَنْ أَنْفَقَ كَارِهًا ، فَكَيْفَ بِمَنْ تَرَكَ النَّفَقَةَ رَأْسًا ، وَقَالَ : ﴿ **وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ** ﴾ [التوبة : ٥٨] ، وَقَالَ : ﴿ **وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ** ﴾ ، وَقَالَ فِي السُّورَةِ : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ** ﴾ [التوبة : ٣٤- ٣٥] فَانْتَظَمَتْ هَذِهِ الأَيَةُ حَالَ مَنْ أَخَذَ الْمَالَ بِغَيْرِ حَقِّهِ ، أَوْ مَنَعَهُ مِنْ مُسْتَحِقِّهِ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ ؛ فَإِنَّ الأَحْبَارَ هُمْ الْعُلَمَاءُ وَالرُّهْبَانُ هُمْ الْعِبَادُ ، وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ – أَيْ يُعْرِضُونَ وَيَمْنَعُونَ ، يُقَالُ : صَدَّ عَنْ الْحَقِّ صُدُودًا وَصَدَّ غَيْرَهُ صَدًّا ، وَهَذَا يَنْدَرِجُ فِيهِ مَا يُؤْكَلُ بِالْبَاطِلِ : مِنْ وَقْفٍ أَوْ عَطِيَّةٍ عَلَى الدِّينِ كَالصَّلاَةِ وَالنُّذُورِ الَّتِي تُنْذَرُ لأَهْلِ الدِّينِ وَمِنْ الأَمْوَالِ الْمُشْتَرَكَةِ كَأَمْوَالِ بَيْتِ الْمَالِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، فَهَذَا فِيمَنْ يَأْكُلُ الْمَالَ بِالْبَاطِلِ بِشُبْهَةِ دِينٍ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ **وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ ، فَهَذَا يَنْدَرِجُ فِيهِ مَنْ كَنَزَ الْمَالَ عَنْ النَّفَقَةِ الْوَاجِبَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالْجِهَادُ أَحَقُّ الأَعْمَالِ بِاسْمِ سَبِيلِ اللَّهِ ، سَوَاءٌ كَانَ مَلِكًا أَوْ مُقَدَّمًا أَوْ غَنِيًّا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ ، وَإِذَا دَخَلَ فِي هَذَا مَا كُنِزَ مِنْ

الْمَالِ الْمَوْرُوثِ وَالْمَكْسُوبِ ، فَمَا كُنِزَ مِنْ الأَمْوَالِ الْمُشْتَرَكَةِ الَّتِي يَسْتَحِقُّهَا عُمُومُ الأُمَّةِ - وَمُسْتَحِقُّهَا : مَصَالِحُهُمْ - أَوْلَى وَأَحْرَى .

فَإِذَا تَبَيَّنَ بَعْضُ مَعْنَى الْمُؤْمِنِ وَالْمُنَافِقِ ، فَإِذَا قَرَأَ الأِنْسَانُ (سُورَةَ الأَحْزَابِ) ، وَعَرَفَ مِنْ الْمَنْقُولاَتِ فِي الْحَدِيثِ وَالتَّفْسِيرِ وَالْفِقْهِ وَالْمَغَازِي : كَيْفَ كَانَتْ صِفَةُ الْوَاقِعَةِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الْقُرْآنُ ، ثُمَّ اعْتَبَرَ هَذِهِ الْحَادِثَةَ بِتِلْكَ : وُجِدَ مِصْدَاقُ مَا ذَكَرْنَا ، وَأَنَّ النَّاسَ انْقَسَمُوا فِي هَذِهِ الْحَادِثَةِ إِلَى الأَقْسَامِ الثَّلاَثَةِ ، كَمَا انْقَسَمُوا فِي تِلْكَ ، وَتَبَيَّنَ لَهُ كَثِيرٌ مِنْ الْمُتَشَابِهَاتِ ، افْتَتَحَ اللَّهُ السُّورَةَ بِقَوْلِهِ : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ** ﴾ [الأحزاب : ١] ، وَذَكَرَ فِي أَثْنَائِهَا قَوْلَهُ : ﴿ **وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا . وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ** ﴾ ، [الأحزاب : ٤٧- ٤٨] ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ **وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا . وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً** ﴾ [الأحزاب : ٣] ، فَأَمَرَهُ بِاتِّبَاعِ مَا أَوْحَى إِلَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ - الَّتِي هِيَ سُنَّتُهُ - وَبِأَنْ يَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ ، فَبِالأُولَى يُحَقِّقُ قَوْلَهُ : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ﴾ ، وَبِالثَّانِيَةِ يُحَقِّقُ قَوْلَهُ : ﴿ **وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ ، وَمِثْلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ **فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ** ﴾ [هود : ١٢٣] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ **عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴾ [الشورى : ١٠] .

وهذا وَإِنْ كَانَ مَأْمُورًا بِهِ فِي جَمِيعِ الدِّينِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ فِي الْجِهَادِ أَوْكَدُ ؛ لِأَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يُجَاهِدَ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ؛ وَذَلِكَ لاَ يَتِمُّ إِلاَّ بِتَأْيِيدٍ قَوِيٍّ مِنْ اللَّهِ ؛ وَلِهَذَا كَانَ الْجِهَادُ سَنَامَ الْعَمَلِ وَانْتَظَمَ سَنَامُ جَمِيعِ الأَحْوَالِ الشَّرِيفَةِ ، فَفِيهِ سَنَامُ الْمَحَبَّةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ **فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةً عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ** ﴾ [المائدة : ٥٤] وَفِيهِ سَنَامُ التَّوَكُّلِ وَسَنَامُ الصَّبْرِ ؛ فَإِنَّ الْمُجَاهِدَ أَحْوَجُ النَّاسِ إِلَى الصَّبْرِ وَالتَّوَكُّلِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى :

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل : ٤١- ٤٢] و قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ : ﴿ **اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ [الأعراف : ١٢٨]، وَلِهَذَا كَانَ الصَّبْرُ وَالْيَقِينُ – اللَّذَيْنِ هُمَّا أَصْلُ التَّوَكُّلِ – يُوجِبَانِ الأَمَامَةَ فِي الدِّينِ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾ [السجدة : ٢٤]، وَلِهَذَا كَانَ الْجِهَادُ مُوجِبًا لِلْهِدَايَةِ الَّتِي هِيَ مُحِيطَةٌ بِأَبْوَابِ الْعِلْمِ ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** ﴾ [العنكبوت : ٦٩].

فَجَعَلَ لِمَنْ جَاهَدَ فِيهِ هِدَايَةَ جَمِيعِ سُبُلِهِ تَعَالَى ؛ وَلِهَذَا قَالَ الأمَامَانِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ ، وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَغَيْرُهُمَا : إِذَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي شَيْءٍ ، فَانْظُرُوا مَاذَا عَلَيْهِ أَهْلُ الثَّغْرِ فَإِنَّ الْحَقَّ مَعَهُمْ ؛ لأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ : ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** ﴾ ، وَفِي الْجِهَادِ أَيْضًا : حَقِيقَةُ الزُّهْدِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَفِي الدَّارِ الدُّنْيَا .

وَفِيهِ أَيْضًا : حَقِيقَةُ الأخْلاَصِ ، فَإِنَّ الْكَلاَمَ فِيمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ فِي سَبِيلِ الرِّيَاسَةِ ، وَلاَ فِي سَبِيلِ الْمَالِ ، وَلاَ فِي سَبِيلِ الْحَمِيَّةِ ، وَهَذَا لاَ يَكُونُ إِلاَّ لِمَنْ قَاتَلَ لِيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ وَلِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَأَعْظَمُ مَرَاتِبِ الأخْلاَصِ : تَسْلِيمُ النَّفْسِ وَالْمَالِ لِلْمَعْبُودِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ** ﴾ [التوبة : ١١١] .

وَالْجَنَّةُ : اسْمٌ لِلدَّارِ الَّتِي حَوَتْ كُلَّ نَعِيمٍ ، أَعْلاَهُ النَّظَرُ إِلَى اللَّهِ إِلَى مَا دُونَ ذَلِكَ مِمَّا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ مِمَّا قَدْ نَعْرِفُهُ وَقَدْ لاَ نَعْرِفُهُ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيمَا رَوَاهُ عَنْهُ

رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ)) [١] .

فَقَدْ تَبَيَّنَ بَعْضُ أَسْبَابِ افْتِتَاحِ هَذِهِ السُّورَةِ بِهَذَا ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى قَالَ : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا** ﴾ [الأحزاب : ٩] كَانَ مُخْتَصَرُ الْقِصَّةِ : أَنَّ الْمُسْلِمِينَ تَحَزَّبَ عَلَيْهِمْ عَامَّةُ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ حَوْلَهُمْ ، وَجَاءُوا بِجُمُوعِهِمْ إِلَى الْمَدِينَةِ لِيَسْتَأْصِلُوا الْمُؤْمِنِينَ ، فَاجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ وَحُلَفَاؤُهَا مِنْ بَنِي أَسَد وَأَشْجَعَ وَفَزَارَةَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ قَبَائِلِ نَجْد ، وَاجْتَمَعَتْ أَيْضًا الْيَهُودُ : مِنْ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ ، فَإِنَّ بَنِي النَّضِيرِ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَجْلاَهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ ، كَمَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي (سُورَةِ الْحَشْرِ) ، فَجَاءُوا فِي الأَحْزَابِ إِلَى قُرَيْظَةَ ، وَهُمْ مُعَاهِدُونَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمُجَاوِرُونَ لَهُ قَرِيبًا مِنَ الْمَدِينَةِ ، فَلَمْ يَزَالُوا بِهِمْ حَتَّى نَقَضَتْ قُرَيْظَةُ الْعَهْدَ ، وَدَخَلُوا فِي الأَحْزَابِ ، فَاجْتَمَعَتْ هَذِهِ الأَحْزَابُ الْعَظِيمَةُ ، وَهُمْ بِقَدْرِ الْمُسْلِمِينَ مَرَّات مُتَعَدِّدَة ، فَرَفَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذُّرِّيَّةَ مِنْ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ فِي آطَامِّ الْمَدِينَةِ ، وَهِيَ مِثْلُ الجواسق ، وَلَمْ يَنْقُلْهُمْ إِلَى مَوَاضِعَ أُخَرَ ، وَجَعَلَ ظَهْرَهُمْ إِلَى سَلْعٍ – وَهُوَ الْجَبَلُ الْقَرِيبُ مِنْ الْمَدِينَةِ مِنْ نَاحِيَةِ الْغَرْبِ وَالشَّامِ – وَجَعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعَدُوِّ خَنْدَقًا ، وَالْعَدُوُّ قَدْ أَحَاطَ بِهِمْ مِنْ الْعَالِيَةِ وَالسَّافِلَةِ ، وَكَانَ عَدُوًّا شَدِيدَ الْعَدَاوَةِ ، لَوْ تَمَكَّنَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ لَكَانَتْ نِكَايَتُهُ فِيهِمْ أَعْظَمَ النِّكَايَاتِ.

وَفِي هَذِهِ الْحَادِثَةِ تَحَزَّبَ هَذَا الْعَدُوُّ مِنْ مَغُولٍ ، وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَنْوَاعِ التُّرْك ، وَمِنْ فُرْسٍ وَمُسْتَعْرِبَةٍ وَنَحْوِهِمْ مِنْ أَجْنَاسِ الْمُرْتَدَّةِ ، وَمِنْ نَصَارَى الأَرْمَنِ وَغَيْرِهِمْ، وَنَزَلَ هَذَا الْعَدُوُّ

(١) الحديث عن أبي هريرة ، أخرجه البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة : ٣٠٠٥ ؛ مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها : رقم ٥٠٥٠ .

بجَانب ديَارِ الْمُسْلمينَ ، وَهُوَ بَيْنَ الأقْدَامِ وَالأحْجَامِ ، مَعَ قلَّة مَنْ بإزَائهِمْ منَ الْمُسْلمينَ ، وَمَقْصُودُهُمْ الاستيلاَءُ عَلَى الدَّارِ وَاصْطِلاَمُ أَهْلهَا ، كَمَا نَزَلَ أُولَئكَ بنُوَاحي الْمَدينَة بإزَاء الْمُسْلمينَ ، وَدَامَ الْحصَارُ عَلَى الْمُسْلمينَ عَامَ الْخَنْدَق - عَلَى مَا قيلَ - بضْعًا وَعشْرينَ لَيْلَةً ، وَقيلَ : عشْرينَ لَيْلَةً ، وَهَذَا الْعَدُوُّ عَبَرَ الْفُرَاتَ سَابعَ عَشَرَ رَبيعٍ الأخَرِ ، وَكَانَ أَوَّلُ انْصرَافه رَاجعًا عَنْ حَلَبَ لَمَّا رَجَعَ مُقَدَّمُهُمْ الْكَبيرُ قازان بمَنْ مَعَهُ : يَوْمَ الاثْنَيْنِ حَادي أَوْ ثَاني عَشَرَ جُمَادَى الأولَى يَوْمَ دَخَلَ الْعَسْكَرُ عَسْكَرُ الْمُسْلمينَ إلَى مصْرَ الْمَحْرُوسَة ، وَاجْتَمَعَ بهِمْ الدَّاعي وَخَاطَبَهُمْ في هَذه الْقَضيَّة ، وَكَانَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمَّا أَلْقَى في قُلُوب الْمُؤْمنينَ مَا أَلْقَى منَ الاهْتمَامِ وَالْعَزْمِ : أَلْقَى اللَّهُ في قُلُوب عَدُوِّهِمْ الرَّوْعَ وَالانْصرَافَ ، وَكَانَ عَامَ الْخَنْدَق بَرْدٌ شَديدٌ وَريحٌ شَديدَةٌ مُنْكَرَةٌ بهَا صَرَفَ اللَّهُ الأحْزَابَ عَنْ الْمَدينَة ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا** ﴾ .

وَهَكَذَا هَذَا الْعَامُ أَكْثَرَ اللَّهُ فيه الثَّلْجَ وَالْمَطَرَ وَالْبَرْدَ عَلَى خلاَف أَكْثَر الْعَادَات، حَتَّى كَرهَ أَكْثَرُ النَّاس ذَلكَ ، وَكُنَّا نَقُولُ لَهُمْ : لاَ تَكْرَهُوا ذَلكَ ؛ فَإنَّ للَّه فيه حكْمَةٌ وَرَحْمَةٌ ، وَكَانَ ذَلكَ منْ أَعْظَم الأسْبَاب الَّتي صَرَفَ اللَّهُ به الْعَدُوَّ ؛ فَإنَّهُ كَثُرَ عَلَيْهِمْ الثَّلْجُ وَالْمَطَرُ وَالْبَرْدُ ، حَتَّى هَلَكَ منْ خَيْلهِمْ مَا شَاءَ اللَّهُ ، وَهَلَكَ أَيْضًا منْهُمْ مَنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَظَهَرَ فيهِمْ وَفي بَقيَّة خَيْلهِمْ منْ الضَّعْف وَالْعَجْز بسَبَب الْبَرْد وَالْجُوع مَا رَأَوْا أَنَّهُمْ لاَ طَاقَةَ لَهُمْ مَعَهُ بقتَال ، حَتَّى بَلَغَني عَنْ بَعْض كبَار الْمُقَدمينَ في أَرْض الشَّام أَنَّهُ قَالَ : لاَ بَيَّضَ اللَّهُ وُجُوهَنَا : أَعَدوْنَا في الثَّلْج إلَى شَعَره ، وَنَحْنُ قُعُودٌ لاَ نَأْخُذُهُمْ ؟ وَحَتَّى علمُوا أَنَّهُمْ كَانُوا صَيْدًا للْمُسْلمينَ لَوْ يَصْطَادُونَهُمْ ؛ لَكنْ في تَأْخير اللَّه اصْطيَادَهُمْ حكْمَةٌ عَظيمَةٌ ، وَقَالَ اللَّهُ في شَأْن الأحْزَاب : ﴿ **إذْ جَاءُوكُمْ منْ فَوْقكُمْ وَمنْ أَسْفَلَ منْكُمْ وَإذْ زَاغَت الأَبْصَارُ وَبَلَغَت الْقُلُوبُ الْحَنَاجرَ وَتَظُنُّونَ باللَّه الظُّنُونَا . هُنَالكَ ابْتُليَ الْمُؤْمنُونَ وَزُلْزِلُوا زلْزَالاً شَديدًا** ﴾ [الأحزاب : ١٠- ١١] .

وَهَكَذَا هَذَا الْعَامُ ، جَاءَ الْعَدُوُّ مِنْ نَاحِيَتِي عُلُوِّ الشَّامِ وَهُوَ شَمَالُ الْفُرَاتِ ، وَهُوَ قِبْلِيِّ الْفُرَاتِ ، فَزَاغَتْ الأَبْصَارُ زَيْغًا عَظِيمًا ، وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ؛ لِعَظْمِ الْبَلاَءِ ؛ لاَ سِيَّمَا لَمَّا اسْتَفَاضَ الْخَبَرُ بِانْصِرَافِ الْعَسْكَرِ إِلَى مِصْرَ ، وَتَقَرَّبَ الْعَدُوُّ وَتَوَجَّهَهُ إِلَى دِمَشْقَ ، وَظَنَّ النَّاسُ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ، هَذَا يَظُنُّ أَنَّهُ لاَ يَقِفُ قُدَّامَهُمْ أَحَدٌ مِنْ جُنْدِ الشَّامِ ، حَتَّى يصطلموا أَهْلَ الشَّامِ ، وَهَذَا يَظُنُّ أَنَّهُمْ لَوْ وَقَفُوا لَكَسَرُوهُمْ كَسْرَةً ، وَأَحَاطُوا بِهِمْ إِحَاطَةَ الْهَالَةِ بِالْقَمَرِ ، وَهَذَا يَظُنُّ أَنَّ أَرْضَ الشَّامِ مَا بَقِيَتْ تُسْكَنُ ، وَلاَ بَقِيَتْ تَكُونُ تَحْتَ مَمْلَكَةِ الإِسْلاَمِ ، وَهَذَا يَظُنُّ إِنَّهُمْ يَأْخُذُونَهَا ، ثُمَّ يَذْهَبُونَ إِلَى مِصْرَ فَيَسْتَوْلُونَ عَلَيْهَا فَلاَ يَقِفُ قُدَّامَهُمْ أَحَدٌ فَيُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِالْفِرَارِ إِلَى الْيَمَنِ وَنَحْوِهَا ، وَهَذَا - إِذَا أَحْسَنَ ظَنَّهُ - قَالَ : إِنَّهُمْ يَمْلِكُونَهَا الْعَامَ ، كَمَا مَلَكُوهَا عَامَ هُولاَكُو سَنَةَ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ ، ثُمَّ قَدْ يَخْرُجُ الْعَسْكَرُ مِنْ مِصْرَ فَيَسْتَنْقِذُهَا مِنْهُمْ ، كَمَا خَرَجَ ذَلِكَ الْعَامَ ، وَهَذَا ظَنُّ خِيَارِهِمْ .

وَهَذَا يَظُنُّ أَنَّ مَا أَخْبَرَهُ بِهِ أَهْلُ الأَثَارِ النَّبَوِيَّةِ وَأَهْلُ التَّحْدِيثِ وَالْمُبَشِّرَاتُ ، أَمَانِي كَاذِبَةٌ وَخُرَافَاتٌ لاَغِيَةٌ ، وَهَذَا قَدْ اسْتَوْلَى عَلَيْهِ الرُّعْبُ وَالْفَزَعُ ، حَتَّى يَمُرَّ الظَّنُّ بِفُؤَادِهِ مَرَّ السَّحَابِ لَيْسَ لَهُ عَقْلٌ يَتَفَهَّمُ وَلاَ لِسَانٌ يَتَكَلَّمُ ، وَهَذَا قَدْ تَعَارَضَتْ عِنْدَهُ الأَمَارَاتُ ، وَتَقَابَلَتْ عِنْدَهُ الأَرَادَاتُ ؛ لاَ سِيَّمَا وَهُوَ لاَ يُفَرِّقُ مِنْ الْمُبَشِّرَاتِ بَيْنَ الصَّادِقِ وَالْكَاذِبِ ، وَلاَ يُمَيِّزُ فِي التَّحْدِيثِ بَيْنَ الْمُخْطِئِ وَالصَّائِبِ ، وَلاَ يَعْرِفُ النُّصُوصَ الأَثَرِيَّةَ مَعْرِفَةَ الْعُلَمَاءِ ؛ بَلْ إِمَّا أَنْ يَكُونَ جَاهِلاً بِهَا ، وَقَدْ سَمِعَهَا سَمَاعَ الْعِبَرِ ، ثُمَّ قَدْ لاَ يَتَفَطَّنُ لِوُجُوهِ دَلاَلَتِهَا الْخَفِيَّةِ ، وَلاَ يَهْتَدِي لِدَفْعِ مَا يَتَخَيَّلُ أَنَّهُ مُعَارِضٌ لَهَا فِي بَادِئِ الرُّؤْيَةِ ، فَلِذَلِكَ اسْتَوْلَتْ الْحِيرَةُ عَلَى مَنْ كَانَ مُتَّسِمًا بِالاهْتِدَاءِ ، وَتَرَاجَمَتْ بِهِ الأَرَاءُ تَرَاجُمَ الصِّبْيَانِ بِالْحَصْبَاءِ : ﴿ **هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا** ﴾ ابْتَلاَهُمْ اللَّهُ بِهَذَا الابْتِلاَءِ الَّذِي يُكَفِّرُ بِهِ خَطِيئَاتِهِمْ ، وَيَرْفَعُ بِهِ دَرَجَاتِهِمْ ، وَزُلْزِلُوا بِمَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ الرَّجَفَاتِ مَا اسْتَوْجَبُوا بِهِ

أَعْلَى الدَّرَجَات ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ **وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا** ﴾ .

وَهَكَذَا قَالُوا فِي هَذِهِ الْفِتْنَة ، فِيمَا وَعَدَهُمْ أَهْلُ الْوِرَاثَة النَّبَوِيَّة وَالْخِلافَةُ الرسالية وَحِزْبُ اللَّه الْمُحَدِّثُونَ عَنْهُ ، حَتَّى حَصَلَ لِهَؤُلاَءِ التَّأَسِّي بِرَسُول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** ﴾ [الأحزاب : ١٢].

فَأَمَّا الْمُنَافِقُونَ فَقَدْ مَضَى التَّنْبِيهُ عَلَيْهِمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ، فَقَدْ تَكَرَّرَ ذِكْرُهُمْ فِي هَذِهِ السُّورَة ، فَذَكَرُوا هُنَا وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ **لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ** ﴾ [الأحزاب : ٦٠] ، وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ **فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ** ﴾ [الأحزاب : ٣٢] .

وَذَكَرَ اللَّهُ مَرَضَ الْقَلْبِ فِي مَوَاضِعَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ **إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلاَءِ دِينُهُمْ** ﴾ [الأنفال : ٤٩] ، وَالْمَرَضُ فِي الْقَلْب كَالْمَرَضِ فِي الْجَسَد ، فَكَمَا أَنَّ هَذَا هُوَ إِحَالَةٌ عَنْ الصِّحَّة وَالاعْتِدَال مِنْ غَيْر مَوْت ، فَكَذَلِكَ قَدْ يَكُونُ فِي الْقَلْب مَرَضٌ يُحِيلُهُ عَنْ الصِّحَّة وَالاعْتِدَال مِنْ غَيْر أَنْ يَمُوتَ الْقَلْبُ ، سَوَاءٌ أَفْسَدَ إِحْسَاسَ الْقَلْب وَإِدْرَاكَهُ ، أَوْ أَفْسَدَ عَمَلَهُ وَحَرَكَتَهُ ، وَذَلِكَ - كَمَا فَسَّرُوهُ - : هُوَ مِنْ ضَعْف الأِيمَان ؛ إِمَّا بِضَعْف عِلْم الْقَلْب وَاعْتِقَاده ، وَإِمَّا بِضَعْف عَمَله وَحَرَكَته ، فَيَدْخُلُ فِيه مَنْ ضَعُفَ تَصْدِيقُهُ ، وَمَنْ غَلَبَ عَلَيْه الْجُبْنُ وَالْفَزَعُ ؛ فَإِنَّ أَدْوَاءَ الْقَلْب مِنْ الشَّهْوَة الْمُحَرَّمَة وَالْحَسَد وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ وَغَيْر ذَلِكَ كُلُّهَا أَمْرَاضٌ.

وَكَذَلِكَ الْجَهْلُ وَالشُّكُوكُ وَالشُّبُهَاتُ الَّتِي فِيه ، وَعَلَى هَذَا فَقَوْلُ : ﴿ **فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ** ﴾ [الأحزاب : ٣٢] هُوَ إِرَادَةُ الْفُجُور وَشَهْوَةُ الزِّنَا كَمَا فَسَّرُوهُ بِه ،

وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ مِنْ الْبُخْلِ ؟)) [١] ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى كِتَابَهُ شِفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((إِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ)) [٢]، وَكَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ : ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ مُنْكَرَاتِ الأَخْلاَقِ وَالأَهْوَاءِ وَالأَدْوَاءِ)) [٣] ، وَلَنْ يَخَافَ الرَّجُلُ غَيْرَ اللَّهِ إِلاَّ لِمَرَضٍ فِي قَلْبِهِ كَمَا ذَكَرُوا أَنَّ رَجُلاً شَكَا إِلَى أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ خَوْفَهُ مِنْ بَعْضِ الْوُلاَةِ فَقَالَ : لَوْ صَحَحْتَ لَمْ تَخَفْ أَحَدًا ، أَيْ خَوْفُكَ مِنْ أَجْلِ زَوَالِ الصِّحَّةِ مِنْ قَلْبِكَ .

وَلِهَذَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ لاَ يَخَافُوا حِزْبَ الشَّيْطَانِ ؛ بَلْ لاَ يَخَافُونَ غَيْرَهُ تَعَالَى فَقَالَ : ﴿ **إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٧٥] أَيْ يُخَوِّفُكُمْ أَوْلِيَاءَهُ ، وَقَالَ لِعُمُومِ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَنْبِيهًا لَنَا : ﴿ **وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ** ﴾ [البقرة : ٤٠] ، وَقَالَ : ﴿ **فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ** ﴾ [المائدة : ٤٤]، وَقَالَ : ﴿ **لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي** ﴾ [البقرة : ١٥٠] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ **الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ** ﴾ [المائدة : ٣] ، وَقَالَ : ﴿ **إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ** ﴾ [التوبة : ١٨] ، وَقَالَ : ﴿ **الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ** ﴾ [الأحزاب : ٣٩

(١) أخرجه الطبراني عن أبي هريرة في الأوسط : ٣٧٣/٨ ؛ الحاكم ، المستدرك : ٢٤٢/٣ . والحديث صحيح كما في صحيح الجامع : رقم ١٣٠٦٠ .

(٢) الحديث عن جابر ، أخرجه أبو داود ، كتاب الطهارة ، باب في المجروح يتيمم : رقم ٢٨٤ ؛ ابن ماجة ، كتاب الطهارة وسننها ، باب في المجروح تصيبه الجنابة : رقم ٥٦٥ .

(٣) الترمذي ، كتاب الدعوات ، باب دعاء أم سلمة : رقم ٣٥١٥ ؛ المستدرك : ٧١٤/١ ؛ صحيح ابن حبان : ٢٤٠/٣ ؛ المعجم الكبير : ١٩/١٩ .

]، وَقَالَ : ﴿ **أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ** ﴾ [التوبة : ١٣].

فَدَلَّتْ هَذِهِ الآيَةُ – وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ **إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ** ﴾ [الأنفال : ٤٩] ، عَلَى أَنَّ الْمَرَضَ وَالنِّفَاقَ فِي الْقَلْبِ يُوجِبُ الرَّيْبَ فِي الأَنْبَاءِ الصَّادِقَةِ ، الَّتِي تُوجِبُ أَمْنَ الإِنْسَانِ : مِنْ الْخَوْفِ حَتَّى يَظُنُّوا أَنَّهَا كَانَتْ غُرُورًا لَهُمْ ، كَمَا وَقَعَ فِي حَادِثَتِنَا هَذِهِ سَوَاءٌ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ **وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا** ﴾ [الأحزاب : ١٣] .

وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ عَسْكَرَ بِالْمُسْلِمِينَ عِنْدَ سَلْعٍ ، وَجَعَلَ الْخَنْدَقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعَدُوِّ ، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ : لاَ مُقَامَ لَكُمْ هُنَا ؛ لِكَثْرَةِ الْعَدُوِّ ، فَارْجِعُوا إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَقِيلَ : لاَ مُقَامَ لَكُمْ عَلَى دِينِ مُحَمَّدٍ فَارْجِعُوا إِلَى دِينِ الشِّرْكِ ، وَقِيلَ : لاَ مُقَامَ لَكُمْ عَلَى الْقِتَالِ ، فَارْجِعُوا إِلَى الاسْتِئْمَانِ وَالاسْتِجَارَةِ بِهِمْ .

وَهَكَذَا لَمَّا قَدِمَ هَذَا الْعَدُوُّ ، كَانَ مِنْ الْمُنَافِقِينَ مَنْ قَالَ : مَا بَقِيَتْ الدَّوْلَةُ الإِسْلاَمِيَّةُ تَقُومُ ، فَيَنْبَغِي الدُّخُولُ فِي دَوْلَةِ التَّتَارِ ، وَقَالَ بَعْضُ الْخَاصَّةِ : مَا بَقِيَتْ أَرْضُ الشَّامِ تُسْكَنُ ؛ بَلْ نَنْتَقِلُ عَنْهَا إِمَّا إِلَى الْحِجَازِ وَالْيَمَنِ وَإِمَّا إِلَى مِصْرَ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : بَلْ الْمَصْلَحَةُ الاسْتِسْلاَمُ لِهَؤُلاَءِ ، كَمَا قَدْ اسْتَسْلَمَ لَهُمْ أَهْلُ الْعِرَاقِ وَالدُّخُولُ تَحْتَ حُكْمِهِمْ ، فَهَذِهِ الْمَقَالاَتُ الثَّلاَثُ قَدْ قِيلَتْ فِي هَذِهِ النَّازِلَةِ ، كَمَا قِيلَتْ فِي تِلْكَ ، وَهَكَذَا قَالَ طَائِفَةٌ مِنْ الْمُنَافِقِينَ ، وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ، لِأَهْلِ دِمَشْقَ خَاصَّةً وَالشَّامِ عَامَّةً : لاَ مُقَامَ لَكُمْ بِهَذِهِ الأَرْضِ ، وَنَفْيُ الْمَقَامِ بِهَا أَبْلَغُ مِنْ نَفْيِ الْمُقَامِ ، وَإِنْ كَانَتْ قَدْ قُرِئَتْ بِالضَّمِّ أَيْضًا ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَقُومَ بِالْمَكَانِ فَكَيْفَ يُقِيمُ بِهِ ؟ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ **وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا** ﴾ [الأحزاب : ١٣] ، وَكَانَ قَوْمٌ مِنْ هَؤُلاَءِ الْمَذْمُومِينَ يَقُولُونَ – وَالنَّاسُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ سَلْعٍ دَاخِلُ الْخَنْدَقِ وَالنِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ فِي آطَامِ الْمَدِينَةِ – : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ، أَيْ مَكْشُوفَةٌ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْعَدُوِّ حَائِلٌ ، – وَأَصْلُ الْعَوْرَةِ : الْخَالِي الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى حِفْظٍ وَسِتْرٍ ، يُقَالُ : اعْوَرَّ مَجْلِسُكَ إِذَا ذَهَبَ سِتْرُهُ أَوْ سَقَطَ جِدَارُهُ ، وَمِنْهُ عَوْرَةُ الْعَدُوِّ – ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ : أَيْ ضَائِعَةٌ تُخْشَى عَلَيْهَا السُّرَّاقُ ، وَقَالَ قتادة : قَالُوا : بُيُوتُنَا مِمَّا يَلِي الْعَدُوَّ ، فَلاَ نَأْمَنُ عَلَى أَهْلِنَا فائذن لَنَا أَنْ نَذْهَبَ إِلَيْهَا لِحِفْظِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ **وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ** ﴾ ؛ لأَنَّ اللَّهَ يَحْفَظُهَا ﴿ **إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا** ﴾ ، فَهُمْ يَقْصِدُونَ الْفِرَارَ مِنْ الْجِهَادِ وَيَحْتَجُّونَ بِحُجَّةِ الْعَائِلَةِ .

وَهَكَذَا أَصَابَ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فِي هَذِهِ الْغُزَاةِ ، صَارُوا يَفِرُّونَ مِنْ الثَّغْرِ إِلَى الْمَعَاقِلِ وَالْحُصُونِ ، وَإِلَى الأَمَاكِنِ الْبَعِيدَةِ كَمِصْرٍ ، وَيَقُولُونَ : مَا مَقْصُودُنَا إِلاَّ حِفْظَ الْعِيَالِ ، وَمَا يُمْكِنُ إِرْسَالُهُمْ مَعَ غَيْرِنَا ، وَهُمْ يَكْذِبُونَ فِي ذَلِكَ ، فَقَدْ كَانَ يُمْكِنُهُمْ جَعْلُهُمْ فِي حِصْنِ دِمَشْقَ لَوْ دَنَا الْعَدُوُّ ، كَمَا فَعَلَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقَدْ كَانَ يُمْكِنُهُمْ إِرْسَالُهُمْ وَالْمُقَامُ لِلْجِهَادِ ، فَكَيْفَ بِمَنْ فَرَّ بَعْدَ إِرْسَالِ عِيَالِهِ ؟

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ **وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا** ﴾ [الأحزاب : ١٤]، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ الْمَدِينَةُ مِنْ جَوَانِبِهَا ، ثُمَّ طَلَبَتْ مِنْهُمْ الْفِتْنَةَ – وَهِيَ الافْتِتَانُ عَنْ الدِّينِ بِالْكُفْرِ أَوْ النِّفَاقِ – لأَعْطُوا الْفِتْنَةَ ، وَلَجَئُوهَا مِنْ غَيْرِ تَوَقُّفٍ .

وَهَذِهِ حَالُ أَقْوَامٍ لَوْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ هَذَا الْعَدُوُّ الْمُنَافِقُ الْمُجْرِمُ ، ثُمَّ طَلَبَ مِنْهُمْ مُوَافَقَتَهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْخُرُوجِ عَنْ شَرِيعَةِ الإِسْلاَمِ – وَتِلْكَ فِتْنَةٌ عَظِيمَةٌ – لَكَانُوا مَعَهُ عَلَى ذَلِكَ ، كَمَا سَاعَدَهُمْ فِي الْعَامِ الْمَاضِي أَقْوَامٌ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْفِتْنَةِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا مَا بَيْنَ تَرْكِ وَاجِبَاتٍ وَفِعْلِ مُحَرَّمَاتٍ ، إِمَّا فِي حَقِّ اللَّهِ وَإِمَّا فِي حَقِّ الْعِبَادِ ، كَتَرْكِ الصَّلاَةِ وَشُرْبِ الْخُمُورِ ، وَسَبِّ السَّلَفِ وَسَبِّ جُنُودِ الْمُسْلِمِينَ وَالتَّجَسُّسِ لَهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، وَدَلاَلَتِهِمْ عَلَى أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ وَحَرِيمِهِمْ ، وَأَخْذِ أَمْوَالِ النَّاسِ وَتَعْذِيبِهِمْ وَتَقْوِيَةِ دَوْلَتِهِمُ الْمَلْعُونَةِ ، وَإِرْجَافِ قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْفِتْنَةِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ **وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً** ﴾ وَهَذِهِ حَالُ أَقْوَامٍ عَاهَدُوا ثُمَّ نَكَثُوا قَدِيمًا وَحَدِيثًا فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ ، فَإِنَّ فِي الْعَامِ الْمَاضِي وَفِي هَذَا الْعَامِ : فِي أَوَّلِ الأَمْرِ كَانَ مِنْ أَصْنَافِ النَّاسِ مَنْ عَاهَدَ عَلَى أَنْ يُقَاتِلَ وَلاَ يَفِرَّ ثُمَّ فَرَّ مُنْهَزِمًا لَمَّا اشْتَدَّ الأَمْرُ .

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ **قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ ، فَأَخْبَرَ اللَّهُ أَنَّ الْفِرَارَ لاَ يَنْفَعُ لاَ مِنَ الْمَوْتِ وَلاَ مِنَ الْقَتْلِ ، فَالْفِرَارُ مِنَ الْمَوْتِ كَالْفِرَارِ مِنَ الطَّاعُونِ ، وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((إِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُم بِهَا فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ))[1] وَالْفِرَارُ مِنَ الْقَتْلِ كَالْفِرَارِ مِنَ الْجِهَادِ ، وَحَرْفُ (لَنْ) يَنْفِي الْفِعْلَ فِي الزَّمَنِ الْمُسْتَقْبَلِ ، وَالْفِعْلُ نَكِرَةٌ ، وَالنَّكِرَةُ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ تَعُمُّ جَمِيعَ أَفْرَادِهَا ، فَاقْتَضَى ذَلِكَ : أَنَّ الْفِرَارَ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ لَيْسَ فِيهِ مَنْفَعَةٌ أَبَدًا ، وَهَذَا خَبَرُ اللَّهِ الصَّادِقِ ، فَمَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ ذَلِكَ يَنْفَعُهُ فَقَدْ كَذَّبَ اللَّهَ فِي خَبَرِهِ .

---

(١) البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب أحاديث الغار : رقم ٣٢١٤ ؛ مسلم ، كتاب السلام ، باب الطاعون والطيرة والكهانة : رقم ٤١٠٨ .

وَالتَّجْرِبَةُ تَدُلُّ عَلَى مِثْلِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ ، فَإِنَّ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ فَرُّوا فِي هَذَا الْعَامِ لَمْ يَنْفَعْهُمْ فِرَارُهُمْ ؛ بَلْ خَسِرُوا الدِّينَ وَالدُّنْيَا وَتَفَاوَتُوا فِي الْمَصَائِبِ ، وَالْمُرَابِطُونَ الثَّابِتُونَ نَفَعَهُمْ ذَلِكَ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا حَتَّى الْمَوْتُ الَّذِي فَرُّوا مِنْهُ كَثُرَ فِيهِمْ ، وَقَلَّ فِي الْمُقِيمِينَ ، فَمَا مَنَعَ الْهَرَبُ مَنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَالطَّالِبُونَ لِلْعَدُوِّ وَالْمُعَاقِبُونَ لَهُ لَمْ يَمُتْ مِنْهُمْ أَحَدٌ وَلاَ قُتِلَ ؛ بَلْ الْمَوْتُ قَلَّ فِي الْبَلَدِ مِنْ حِينِ خَرَجَ الْفَارُّونَ ، وَهَكَذَا سُنَّةُ اللَّهِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ **وَإِذًا لاَ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ [الأحزاب : ١٦] يَقُولُ : لَوْ كَانَ الْفِرَارُ يَنْفَعُكُمْ لَمْ يَنْفَعْكُمْ إِلاَّ حَيَاةً قَلِيلَةً ثُمَّ تَمُوتُونَ ، فَإِنَّ الْمَوْتَ لاَ بُدَّ مِنْهُ ، وَقَدْ حُكِيَ عَنْ بَعْضِ الْحَمْقَى أَنَّهُ قَالَ : فَنَحْنُ نُرِيدُ ذَلِكَ الْقَلِيلَ ، وَهَذَا جَهْلٌ مِنْهُ بِمَعْنَى الْآيَةِ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَقُلْ : إِنَّهُمْ يُمَتَّعُونَ بِالْفِرَارِ قَلِيلاً ، لَكِنَّهُ ذَكَرَ أَنَّهُ لاَ مَنْفَعَةَ فِيهِ أَبَدًا ، ثُمَّ ذَكَرَ جَوَابًا ثَانِيًا ، أَنَّهُ لَوْ كَانَ يَنْفَعُ لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِلاَّ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ، ثُمَّ ذَكَرَ جَوَابًا ثَالِثًا وَهُوَ أَنَّ الْفَارَّ يَأْتِيهِ مَا قُضِيَ لَهُ مِنْ الْمَضَرَّةِ ، وَيَأْتِي الثَّابِتُ مَا قُضِيَ لَهُ مِنَ الْمَسَرَّةِ ، فَقَالَ : ﴿ **قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا** ﴾ [الأحزاب : ١٧] ، وَنَظِيرُهُ : قَوْلُهُ فِي سِيَاقِ آيَاتِ الْجِهَادِ : ﴿ **أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ** ﴾ [النساء : ٧٨] ، الآيَةَ وَقَوْلُهُ : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ [آل عمران : ١٥٦] .

فَمَضْمُونُ الأَمْرِ : أَنَّ الْمَنَايَا مَحْتُومَةٌ ، فَكَمْ مَنْ حَضَرَ الصُّفُوفَ فَسَلِمَ ، وَكَمْ مِمَّنْ فَرَّ مِنْ الْمَنِيَّةِ فَصَادَفَتْهُ ، كَمَا قَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ - لَمَّا احْتُضِرَ - : ((لَقَدْ حَضَرْتُ كَذَا

وَكَذَا صَفًّا ، وَأَنَّ بِبَدَنِي بِضْعًا وَثَمَانِينَ ، مَا بَيْنَ ضَرْبَةٍ بِسَيْفٍ وَطَعْنَةٍ بِرُمْحٍ وَرَمْيَةٍ بِسَهْمٍ ، وهأنذا أَمُوتُ عَلَى فِرَاشِي كَمَا يَمُوتُ الْبَعِيرُ ، فَلاَ نَامَتْ أَعْيُنُ الْجُبَنَاءِ)) (١) .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ **قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا** ﴾ [الأحزاب : ١٨] ، قَالَ الْعُلَمَاءُ : كَانَ مِنْ الْمُنَافِقِينَ مَنْ يَرْجِعُ مِنْ الْخَنْدَقِ فَيَدْخُلُ الْمَدِينَةَ ، فَإِذَا جَاءَهُمْ أَحَدٌ قَالُوا لَهُ : وَيْحَكَ اجْلِسْ فَلاَ تَخْرُجْ ، وَيَكْتُبُونَ بِذَلِكَ إِلَى إِخْوَانِهِمْ الَّذِينَ بِالْعَسْكَرِ : أَنْ ائْتُونَا بِالْمَدِينَةِ فَإِنَّا نَنْتَظِرُكُمْ ، يُثَبِّطُونَهُمْ عَنْ الْقِتَالِ ، وَكَانُوا لاَ يَأْتُونَ الْعَسْكَرَ إِلاَّ أَلاَّ يَجِدُوا بُدًّا ، فَيَأْتُونَ الْعَسْكَرَ لِيَرَى النَّاسُ وُجُوهَهُمْ ، فَإِذَا غَفَلَ عَنْهُمْ عَادُوا إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَانْصَرَفَ بَعْضُهُمْ مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَوَجَدَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ وَعِنْدَهُ شِوَاءٌ وَنَبِيذٌ ، فَقَالَ: أَنْتَ هَهُنَا وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ الرِّمَاحِ وَالسُّيُوفِ ؟ فَقَالَ : هَلُمَّ إِلَيَّ فَقَدْ أُحِيطَ بِكَ وَبِصَاحِبِكَ .

فَوَصَفَ الْمُثَبِّطِينَ عَنْ الْجِهَادِ – وَهُمْ صِنْفَانِ – بِأَنَّهُمْ :

إِمَّا أَنْ يَكُونُوا فِي بَلَدِ الْغُزَاةِ أَوْ فِي غَيْرِهِ ، فَإِنْ كَانُوا فِيهِ عَوَّقُوهُمْ عَنْ الْجِهَادِ بِالْقَوْلِ أَوْ بِالْعَمَلِ أَوْ بِهِمَا ، وَإِنْ كَانُوا فِي غَيْرِهِ رَاسَلُوهُمْ أَوْ كَاتَبُوهُمْ : بِأَنْ يَخْرُجُوا إِلَيْهِمْ مِنْ بَلَدِ الْغُزَاةِ لِيَكُونُوا مَعَهُمْ بِالْحُصُونِ أَوْ بِالْبُعْدِ ، كَمَا جَرَى فِي هَذِهِ الْغُزَاةِ ، فَإِنَّ أَقْوَامًا فِي الْعَسْكَرِ وَالْمَدِينَةِ وَغَيْرِهِمَا ، صَارُوا يُعَوِّقُونَ مَنْ أَرَادَ الْغَزْوَ وَأَقْوَامًا بُعِثُوا مِنْ الْمَعَاقِلِ وَالْحُصُونِ وَغَيْرِهَا إِلَى إِخْوَانِهِمْ : هَلُمَّ إِلَيْنَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ : ﴿ **وَلاَ يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً . أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ** ﴾ [الأحزاب : ١٨ – ١٩] ، أَيّ بُخَلاَءَ عَلَيْكُمْ بِالْقِتَالِ مَعَكُمْ وَالنَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : بُخَلاَءُ عَلَيْكُمْ بِالْخَيْرِ وَالظَّفَرِ وَالْغَنِيمَةِ ، وَهَذِهِ حَالُ مَنْ بَخِلَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ ، أَوْ شَحَّ عَلَيْهِمْ بِفَضْلِ اللَّهِ : مِنْ نَصْرِهِ وَرِزْقِهِ الَّذِي

---

(١) سير أعلام النبلاء : ٣٨٢/١ .

يُجْرِيه بِفِعْلِ غَيْرِهِ ، فَإِنَّ أَقْوَامًا يَشُحُّونَ بِمَعْرُوفِهِمْ وَأَقْوَامًا يَشُحُّونَ بِمَعْرُوفِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ ، وَهُمْ الْحُسَّادُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ **فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ** ﴾ [الأحزاب : ١٩] ، مِنْ شِدَّةِ الرُّعْبِ الَّذِي فِي قُلُوبِهِمْ يُشَبِّهُونَ الْمُغْمَى عَلَيْهِ وَقْتَ النَّزْعِ ، فَإِنَّهُ يَخَافُ وَيُذْهِلُ عَقْلَهُ وَيَشْخَصُ بَصَرُهُ وَلاَ يَطْرِفُ ، فَكَذَلِكَ هَؤُلاَءِ ؛ لأَنَّهُمْ يَخَافُونَ الْقَتْلَ : ﴿ **فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ** ﴾ [الأحزاب : ١٩] ، وَيُقَالُ فِي اللُّغَةِ (صَلَقُوكُمْ) : وَهُوَ رَفْعُ الصَّوْتِ بِالْكَلاَمِ الْمُؤْذِي ، وَمِنْهُ (الصَّالِقَةُ) : وَهِيَ الَّتِي تَرْفَعُ صَوْتَهَا بِالْمُصِيبَةِ ، يُقَالُ : صَلَقَهُ وَسَلَقَهُ ، وَقَدْ قَرَأَ طَائِفَةٌ مِنْ السَّلَفِ بِهَا ؛ لَكِنَّهَا خَارِجَةٌ عَنْ الْمُصْحَفِ - إِذَا خَاطَبَهُ خِطَابًا شَدِيدًا قَوِيًّا ، وَيُقَالُ : خَطِيبٌ مِسْلاَقٌ : إِذَا كَانَ بَلِيغًا فِي خُطْبَتِهِ ؛ لَكِنَّ الشِّدَّةَ هُنَا فِي الشَّرِّ لاَ فِي الْخَيْرِ ، كَمَا قَالَ ﴿ **بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ** ﴾ .

وَهَذَا السَّلْقُ بِالأَلْسِنَةِ الْحَادَّةِ يَكُونُ بِوُجُوهٍ : تَارَةً يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ : هَذَا الَّذِي جَرَى عَلَيْنَا بِشُؤْمِكُمْ ؛ فَإِنَّكُمْ أَنْتُمْ الَّذِينَ دَعَوْتُمْ النَّاسَ إِلَى هَذَا الدِّينِ ، وَقَاتَلْتُمْ عَلَيْهِ وَخَالَفْتُمُوهُمْ ؛ فَإِنَّ هَذِهِ مَقَالَةُ الْمُنَافِقِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ الصَّحَابَةِ .

وَتَارَةً يَقُولُونَ : أَنْتُمْ الَّذِينَ أَشَرْتُمْ عَلَيْنَا بِالْمُقَامِ هُنَا ، وَالثَّبَاتِ بِهَذَا الثَّغْرِ إِلَى هَذَا الْوَقْتِ ، وَإِلاَّ فَلَوْ كُنَّا سَافَرْنَا قَبْلَ هَذَا لَمَا أَصَابَنَا هَذَا ، وَتَارَةً يَقُولُونَ - أَنْتُمْ مَعَ قِلَّتِكُمْ وَضَعْفِكُمْ - تُرِيدُونَ أَنْ تَكْسِرُوا الْعَدُوَّ وَقَدْ غَرَّكُمْ دِينُكُمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ **إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلاَءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ [الأنفال : ٤٩] ، وَتَارَةً يَقُولُونَ : أَنْتُمْ مَجَانِينُ لاَ ، عقل لَكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُهْلِكُوا أَنْفُسَكُمْ وَالنَّاسُ مَعَكُمْ ، وَتَارَةً يَقُولُونَ : أَنْوَاعًا مِنْ الْكَلاَمِ الْمُؤْذِي الشَّدِيدِ ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ

أَشحَّةٌ عَلَى الْخَيْرِ ، أَيْ حُرَّاصٌ عَلَى الْغَنِيمَةِ وَالْمَالِ الَّذي قَدْ حَصَلَ لَكُمْ ، قَالَ قتادة : إنْ كَانَ وَقْتَ قسْمَة الْغَنيمَة بَسَطُوا أَلْسنَتَهُمْ فيكُمْ ، يَقُولُونَ : أَعْطُونَا فَلَسْتُمْ بِأَحَقَّ بِهَا منَّا ، فَأَمَّا عنْدَ الْبَأْسِ فَأَجْبَنُ قَوْمٍ وَأَخْذَلُهُمْ لِلْحَقِّ ، وَأَمَّا عنْدَ الْغَنِيمَة فأشح قَوْمٍ .

وَقيلَ : أَشحَّةٌ عَلَى الْخَيْرِ أَيْ بُخَلاَءُ به ، لاَ يَنْفَعُونَ لاَ بِنُفُوسِهِمْ وَلاَ بِأَمْوَالِهِمْ، وَأَصْلُ الشُّحِّ : شدَّةُ الْحرْصِ الَّذي يَتَوَلَّدُ عَنْهُ الْبُخْلُ وَالظُّلْمُ : مَنْ مَنَعَ الْحَقَّ وَأَخَذَ الْبَاطِلَ ، كَمَا قَالَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ : ((إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ ؛ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، أَمَرَهُمْ بِالْبُخْلِ فَبَخلُوا وَأَمَرَهُمْ بالظُّلْمِ فَظَلَمُوا وَأَمَرَهُمْ بِالْقَطيعَة فَقَطَعُوا))[(١)] ، فَهَؤُلاَءِ أَشحَّاءُ عَلَى إخْوَانِهِمْ : أَيْ بُخَلاَءُ عَلَيْهِمْ ، وَأَشحَّاءُ عَلَى الْخَيْرِ أَيْ حُرَّاصٌ عَلَيْه ، فَلاَ يُنْفقُونَهُ ، كَمَا قَالَ : ﴿ **وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ** ﴾ [العاديات : ٨] .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ **يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ [الأحزاب : ٢٠] ، فَوَصَفَهُمْ بِثَلاَثَة أَوْصَاف :

أَحَدُهَا : أَنَّهُمْ لِفَرْط خَوْفِهِمْ يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَنْصَرِفُوا عَنْ الْبَلَد ، وَهَذه حَالُ الْجَبَانِ الَّذي فِي قَلْبِه مَرَضٌ ، فَإِنَّ قَلْبَهُ يُبَادِرُ إِلَى تَصْدِيقِ الْخَبَرِ الْمُخَوِّف وَتَكْذِيب خَبَرِ الأَمْنِ ، الْوَصْفُ .

الثَّاني : أَنَّ الأَحْزَابَ إِذَا جَاءُوا تَمَنَّوْا أَنْ لاَ يَكُونُوا بَيْنَكُمْ ؛ بَلْ يَكُونُونَ فِي الْبَادِيَة بَيْنَ الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائكُمْ : إيش خَبَرُ الْمَدينَة ؟ وإيش جَرَى للنَّاس ؟.

وَالْوَصْفُ الثَّالثُ : أَنَّ الأَحْزَابَ إِذَا أَتَوْا – وَهُمْ فِيكُمْ – لَمْ يُقَاتلُوا إلاَّ قَليلاً .

---

(١) أبو داود ، كتاب الزكاة ، باب في الشح : رقم ١٤٤٧ ؛ أحمد ، المسند : ١٥٩/٢ .

وَهَذِه الصِّفَاتُ الثَّلاَثُ مُنْطَبِقَةٌ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ النَّاسِ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ ، كَمَا يَعْرِفُونَهُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَيَعْرِفُهُ مِنْهُمْ مِنْ خَبَرِهِمْ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الأخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا** ﴾ [الأحزاب : ٢١]، فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الَّذِينَ يُبْتَلَوْنَ بِالْعَدُوِّ ، كَمَا ابْتُلِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَهُمْ فِيهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ، حَيْثُ أَصَابَهُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُ ، فَلْيَتَأَسَّوْا بِهِ فِي التَّوَكُّلِ وَالصَّبْرِ ، وَلاَ يَظُنُّونَ أَنَّ هَذِهِ نِقَمٌ لِصَاحِبِهَا وَإِهَانَةٌ لَهُ ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ مَا ابْتُلِيَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْرُ الْخَلاَئِقِ ؛ بَلْ بِهَا يُنَالُ الدَّرَجَاتُ الْعَالِيَةُ ، وَبِهَا يُكَفِّرُ اللَّهُ الْخَطَايَا لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الأخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ، وَإِلاَّ فَقَدْ يُبْتَلَى بِذَلِكَ مَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ فَيَكُونُ فِي حَقِّهِ عَذَابًا ، كَالْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ **وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا** ﴾ [الأحزاب : ٢٢] ، قَالَ الْعُلَمَاءُ : كَانَ اللَّهُ قَدْ أَنْزَلَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ** ﴾ [البقرة : ٢١٤] ، فَبَيَّنَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ - مُنْكِرًا عَلَى مَنْ حَسَبَ خِلاَفَ ذَلِكَ - أَنَّهُمْ لاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلاَّ بَعْدَ أَنْ يُبْتَلَوْا مِثْلُ هَذِهِ الأُمَمِ قَبْلَهُمْ بِـ (الْبَأْسَاءِ) : وَهِيَ الْحَاجَةُ وَالْفَاقَةُ ، وَ (الضَّرَّاءُ) : وَهِيَ الْوَجَعُ وَالْمَرَضُ ، وَ (الزِّلْزَالُ) : وَهِيَ زَلْزَلَةُ الْعَدُوِّ ، فَلَمَّا جَاءَ الأحْزَابُ عَامَ الْخَنْدَقِ فَرَأَوْهُمْ ، قَالُوا : ﴿ **هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ** ﴾ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ قَدْ ابْتَلاَهُمْ بِالزِّلْزَالِ ، وَأَتَاهُمْ مِثْلَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا لِحُكْمِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ ، وَهَذِهِ حَالُ أَقْوَامٍ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ : قَالُوا ذَلِكَ .

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ** ﴾ [الأحزاب : ٢٣] ، أَيْ : عَهْدَهُ الَّذي عَاهَدَ اللَّهَ عَلَيْه ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتلَ أَوْ عَاشَ ، وَ (النَّحْبُ) : النَّذْرُ وَالْعَهْدُ ، وَأَصْلُهُ منَ النَّحيب ، وَهُوَ الصَّوْتُ ، وَمنْهُ : الانْتحَابُ في الْبُكَاء ، وَهُوَ الصَّوْتُ الَّذي تَكَلَّمَ به في الْعَهْد ، ثُمَّ لَمَّا كَانَ عَهْدُهُمْ هُوَ نَذْرُهُمْ الصِّدْقُ في اللِّقَاء – وَمَنْ صَدَقَ في اللِّقَاء فَقَدْ يُقْتَلُ – صَارَ يُفْهَمُ منْ قَوْله : ﴿ **قَضَى نَحْبَهُ** ﴾ أَنَّهُ اُسْتُشْهِدَ ، لاَ سيَّمَا إذَا كَانَ النَّحْبُ : نَذْرُ الصِّدْق في جَميعِ الْمُوَاطنِ ؛ فَإِنَّهُ لاَ يَقْضيه إلاَّ بالْمَوْت ، وَقَضَاءُ النَّحْب هُوَ الْوَفَاءُ بالْعَهْد ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ **منَ الْمُؤْمنينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْه فَمنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ** ﴾ أَيْ أَكْمَلَ الْوَفَاءَ ، وَذَلكَ لمَنْ كَانَ عَهْدُهُ مُطْلَقًا : بالْمَوْت أَوْ الْقَتْل ، ﴿ **وَمنْهُمْ مَنْ يَنْتَظرُ** ﴾ قَضَاءَهُ إذَا كَانَ قَدْ وَفَى الْبَعْضَ ، فَهُوَ يَنْتَظرُ تَمَامَ الْعَهْد .

وَأَصْلُ الْقَضَاء : الأتْمَامُ وَالأكْمَالُ : ﴿ **ليَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادقينَ بصدْقهمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافقينَ إنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهمْ إنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحيمًا** ﴾ [الأحزاب : ٢٤] ، بَيَّنَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ أَتَى بالأحْزَاب ليَجْزيَ الصَّادقينَ بصدْقهمْ، حَيْثُ صَدَقُوا في إيمَانهمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ **إنَّمَا الْمُؤْمنُونَ الَّذينَ آمَنُوا باللَّه وَرَسُوله ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بأَمْوَالهمْ وَأَنْفُسهمْ في سَبيل اللَّه أُولَئكَ هُمُ الصَّادقُونَ** ﴾ [الحجرات : ١٥] ، فَحَصَرَ الأيمَانَ في الْمُؤْمنينَ الْمُجَاهدينَ ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ هُمْ الصَّادقُونَ في قَوْلهمْ : آمَنَّا ؛ لاَ مَنْ قَالَ كَمَا قَالَتْ الأعْرَابُ : آمَنَّا وَالأيمَانُ لَمْ يَدْخُلْ في قُلُوبهمْ ؛ بَلْ انْقَادُوا وَاسْتَسْلَمُوا .

وَأَمَّا الْمُنَافقُونَ فَهُمْ بَيْنَ أَمْرَيْن :

إمَّا أَنْ يُعَذِّبَهُمْ وَإمَّا أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهمْ ، فَهَذَا حَالُ النَّاسِ في الْخَنْدَق وَفي هَذه الْغَزَاة ، وَأَيْضًا فَإنَّ اللَّهَ تَعَالَى ابْتَلَى النَّاسَ بهَذه الْفتْنَة ؛ ليَجْزيَ الصَّادقينَ بصدْقهمْ ، وَهُمْ الثَّابتُونَ

الصَّابِرُونَ لِيَنْصُرُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، وَنَحْنُ نَرْجُو مِنَ اللَّهِ أَنْ يَتُوبَ عَلَى خَلْقٍ كَثِيرٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَذْمُومِينَ ؛ فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ نَدِمَ ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ، وَقَدْ فَتَحَ اللَّهُ لِلتَّوْبَةِ بَابًا مِنْ قِبَلِ الْمَغْرِبِ عَرْضُهُ أَرْبَعُونَ سَنَةً ، لاَ يُغْلِقُهُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا ،

وَقَدْ ذَكَرَ أَهْلُ الْمَغَازِي - مِنْهُمْ ابْنُ إِسْحَاقَ - أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي الْخَنْدَقِ : ((الأَنَ نَغْزُوهُمْ وَلاَ يَغْزُونَا))[1] ، فَمَا غَزَتْ قُرَيْشٌ وَلاَ غطفان وَلاَ الْيَهُودُ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَهَا ؛ بَلْ غَزَاهُمْ الْمُسْلِمُونَ : فَفَتَحُوا خَيْبَرَ ثُمَّ فَتَحُوا مَكَّةَ .

كَذَلِكَ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - هَؤُلَاءِ الأَحْزَابُ مِنَّ الْمَغُولِ وَأَصْنَافِ التُّرْكِ وَمِنَ الْفُرْسِ والمستعربة وَالنَّصَارَى ، وَنَحْوِهِمْ مِنْ أَصْنَافِ الْخَارِجِينَ عَنْ شَرِيعَةِ الإِسْلَامِ : الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلاَ يَغْزُونَا ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ خَالَطَ قُلُوبَهُمْ مَرَضٌ أَوْ نِفَاقٌ ، بِأَنْ يُنِيبُوا إِلَى رَبِّهِمْ وَيُحْسِنَ ظَنُّهُمْ بِالإِسْلَامِ وَتَقْوَى عَزِيمَتُهُمْ عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِمْ ، فَقَدْ أَرَاهُمُ اللَّهُ مِنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ عِبْرَةٌ لِأُولِي الأَبْصَارِ كَمَا قَالَ : ﴿ **وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا** ﴾ [الأحزاب : ٢٥] .

فَإِنَّ اللَّهَ صَرَفَ الأَحْزَابَ عَامَ الْخَنْدَقِ بِمَا أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ رِيحِ الصبا : رِيحٌ شَدِيدَةٌ بَارِدَةٌ ، وَبِمَا فَرَّقَ بِهِ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، حَتَّى شَتَّتَ شَمْلَهُمْ ، وَلَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ، إِذْ كَانَ هَمُّهُمْ فَتْحُ الْمَدِينَةِ وَالاسْتِيلَاءِ عَلَيْهَا وَعَلَى الرَّسُولِ وَالصَّحَابَةِ ، كَمَا كَانَ هَمَّ هَذَا الْعَدُوُّ فَتْحَ الشَّامِ وَالاسْتِيلَاءَ عَلَى مَنْ بِهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَرَدَّهُمْ اللَّهُ بِغَيْظِهِمْ، حَيْثُ أَصَابَهُمْ مِنَ الثَّلْجِ الْعَظِيمِ وَالْبَرْدِ الشَّدِيدِ وَالرِّيحِ الْعَاصِفِ وَالْجُوعِ الْمُزْعِجِ مَا اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ ، وَقَدْ كَانَ بَعْضُ النَّاسِ يَكْرَهُ تِلْكَ الثُّلُوجَ وَالأَمْطَارَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي وَقَعَتْ فِي هَذَا الْعَامِ ، حَتَّى طَلَبُوا الاستصحاء غَيْرَ

---

(١) مسند أحمد : ٢٦٢/٤ .

مَرَّة ، وَكُنَّا نَقُولُ لَهُمْ : هَذَا فِيه خَيْرَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَفِيه لِلَّه حِكْمَةٌ وَسِرٌّ فَلاَ تَكْرَهُوهُ ، فَكَانَ مِنْ حِكْمَتِه : أَنَّهُ فِيمَا قِيلَ : أَصَابَ قازان وَجُنُودَهُ حَتَّى أَهْلَكَهُمْ ، وَهُوَ كَانَ فِيمَا قِيلَ : سَبَبُ رَحِيلِهِمْ ، وَابْتُلِيَ بِه الْمُسْلِمُونَ لِيَتَبَيَّنَ مَنْ يَصْبِرُ عَلَى أَمْرِ اللَّه ، وَحُكْمِه مِمَّنْ يَفِرُّ عَنْ طَاعَتِه وَجِهَادِ عَدُوِّه ، وَكَانَ مَبْدَأُ رَحِيلِ قازان فِيمَنْ مَعَهُ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ وَأَرَاضِي حَلَبَ : يَوْمَ الاثْنَيْنِ حَادِيَ عَشَرَ جُمَادَى الأولَى ، يَوْمَ دَخَلَتْ مِصْرَ عَقِيبَ الْعَسْكَرِ ، وَاجْتَمَعَتْ بِالسُّلْطَانِ وَأُمَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَلْقَى اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ الاهْتِمَامِ بِالْجِهَادِ مَا أَلْقَاهُ .

فَلَمَّا ثَبَّتَ اللَّهُ قُلُوبَ الْمُسْلِمِينَ ، صَرَفَ الْعَدُوَّ جَزَاءً مِنْهُ وَبَيَانًا أَنَّ النِّيَّةَ الْخَالِصَةَ وَالْهِمَّةَ الصَّادِقَةَ يَنْصُرُ اللَّهُ بِهَا ، وَإِنْ لَمْ يَقَعْ الْفِعْلُ وَإِنْ تَبَاعَدَتْ الدِّيَارُ ، وَذَكَرَ أَنَّ اللَّهَ فَرَّقَ بَيْنَ قُلُوبِ هَؤُلاَءِ الْمَغُولِ وَالْكَرَجِ وَأَلْقَى بَيْنَهُمْ تَبَاغُضًا وَتَعَادِيًا ، كَمَا أَلْقَى سُبْحَانَهُ عَامَ الأَحْزَابِ بَيْنَ قُرَيْشٍ وغطفان وَبَيْنَ الْيَهُودِ ، كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ أَهْلُ الْمَغَازِي ، فَإِنَّهُ لَمْ يَتَّسِعْ هَذَا الْمَكَانُ لأَنْ نَصِفَ فِيه قِصَّةَ الْخَنْدَقِ ، بَلْ مَنْ طَالَعَهَا عَلِمَ صِحَّةَ ذَلِكَ كَمَا ذَكَرَهُ أَهْلُ الْمَغَازِي ، مِثْلَ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ وَالزُّهْرِيِّ وَمُوسَى بْنِ عُقْبَةَ وَسَعِيدِ بْنِ يَحْيَى الأَمَوِيِّ وَمُحَمَّدِ بْنِ عَائِذٍ وَمُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ والواقدي وَغَيْرِهِمْ .

ثُمَّ تَبَقَّى بِالشَّامِ مِنْهُمْ بَقَايَا سَارَ إِلَيْهِمْ مِنْ عَسْكَرِ دِمَشْقَ أَكْثَرُهُمْ مُضَافًا إِلَى عَسْكَرِ حَمَاةَ وَحَلَبَ وَمَا هُنَالِكَ ، وَثَبَتَ الْمُسْلِمُونَ بِإِزَائِهِمْ ، وَكَانُوا أَكْثَرَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ بِكَثِيرٍ ؛ لَكِنْ فِي ضَعْفٍ شَدِيدٍ وَتَقَرَّبُوا إِلَى حَمَاةَ وَأَذَلَّهُمْ اللَّهُ تَعَالَى، فَلَمْ يَقْدَمُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ قَطُّ ، وَصَارَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يُرِيدُ الأَقْدَامَ عَلَيْهِمْ فَلَمْ يُوَافِقْهُ غَيْرُهُ ، فَجَرَتْ مُنَاوَشَاتٌ صِغَارٌ كَمَا جَرَى فِي غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ ، حَيْثُ قَتَلَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِيهَا عَمْرَو بْنَ عَبْدِ وُدٍّ الْعَامِرِيَّ ، لَمَّا اقْتَحَمَ الْخَنْدَقَ هُوَ وَنَفَرٌ قَلِيلٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ ، كَذَلِكَ صَارَ يَتَقَرَّبُ بَعْضُ الْعَدُوِّ فَيَكْسِرُهُمْ الْمُسْلِمُونَ ، مَعَ كَوْنِ الْعَدُوِّ الْمُتَقَرِّبِ أَضْعَافَ مَنْ قَدْ سَرَى إِلَيْه مِنْ الْمُسْلِمِينَ ، وَمَا مِنْ مَرَّةٍ إِلاَّ وَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ مستظهرين عَلَيْهِمْ ، وَسَاقَ الْمُسْلِمُونَ

خَلْفَهُمْ فِي آخِرِ النَّوْبَاتِ ، فَلَمْ يُدْرِكُوهُمْ إِلاَّ عِنْدَ عُبُورِ الْفُرَاتِ ، وَبَعْضُهُمْ فِي جَزِيرَةٍ فِيهَا ، فَرَأَوْا أَوَائِلَ الْمُسْلِمِينَ فَهَرَبُوا مِنْهُمْ وَخَالَطُوهُمْ ؛ وَأَصَابَ الْمُسْلِمُونَ بَعْضَهُمْ ، وَقِيلَ : إِنَّهُ غَرِقَ بَعْضُهُمْ .

وَكَانَ عُبُورُهُمْ وَخُلُوُّ الشَّامِ مِنْهُمْ فِي أَوَائِلِ رَجَب بَعْدَ أَنْ جَرَى - مَا بَيْنَ عُبُورِ قَازَان أَوَّلاً وَهَذَا الْعُبُورُ ، رَجَفَاتٌ وَوَقَعَاتٌ صِغَارٌ وَعَزَمْنَا عَلَى الذَّهَابِ إِلَى حَمَاةَ غَيْرَ مَرَّةٍ لِأَجْلِ الْغَزَاةِ ؛ لَمَّا بَلَغَنَا أَنَّ الْمُسْلِمِينَ يُرِيدُونَ غَزْوَ الَّذِينَ بَقُوا ، وَثَبَتَ بِإِزَائِهِمْ الْمُقَدَّمُ الَّذِي بِحَمَاةَ وَمَنْ مَعَهُمْ مِنْ الْعَسْكَرِ وَمَنْ أَتَاهُ مِنْ دِمَشْقَ ، وَعَزَمُوا عَلَى لِقَائِهِمْ وَنَالُوا أَجْرًا عَظِيمًا ، وَقَدْ قِيلَ : إِنَّهُمْ كَانُوا عِدَّةَ كمانات ؛ إِمَّا ثَلاَثَةٌ أَوْ أَرْبَعَةٌ .

فَكَانَ مِنْ الْمُقَدَّرِ : أَنَّهُ إِذَا عَزَمَ الأَمْرُ وَصَدَقَ الْمُؤْمِنُونَ اللَّهَ يُلْقِي فِي قُلُوبِ عَـدُوِّهِمْ الرُّعْبَ ، فَيَهْرُبُونَ لَكِنْ أَصَابُوا مِنْ البليدات بِالشَّمَالِ مِثْلَ (تيزين) وَ (الْفَوْعَةِ) وَ (مَعَرَّةِ مِصْرَيْنِ) وَغَيْرِهَا مَا لَمْ يَكُونُوا وَطِئُوهُ فِي الْعَامِ الْمَاضِي ، وَقِيلَ : إِنَّ كَثِيرًا مِنْ تِلْكَ الْبِلاَدِ كَانَ فِيهِمْ مَيْلٌ إِلَيْهِمْ ؛ بِسَبَبِ الرَّفْضِ وَأَنَّ عِنْدَ بَعْضِهِمْ فَرَامِينَ مِنْهُمْ ؛ لَكِنَّ هَؤُلاَءِ ظَلَمَـةٌ وَمَنْ أَعَانَ ظَالِمًا بُلِيَ بِهِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ **وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَـا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [الأنعام : ١٢٩] ، وَقَدْ ظَاهَرُوهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ : الَّذِينَ كَفَرُوا مِـنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ أَهْلِ (سيس) وَالأَفْرَنْجِ ، فَنَحْنُ نَرْجُو مِنْ اللَّهِ أَنْ يُنْزِلَهُمْ مِنْ صَيَاصِيهِمْ ، وَهِيَ الْحُصُونُ - وَيُقَالُ لِلْقُرُونِ : **الصَّيَاصِي** - وَيَقْذِفُ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ ، وَقَدْ فَتَحَ اللَّهُ تِلْكَ الْبِلاَدَ ، وَنَغْزُوهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، فَنَفْتَحُ أَرْضَ الْعِرَاقِ وَغَيْرَهَا وَتَعْلُو كَلِمَةُ اللَّـهِ وَيَظْهَرُ دِينُهُ .

فَإِنَّ هَذِهِ الْحَادِثَةَ كَانَ فِيهَا أُمُورٌ عَظِيمَةٌ جَازَتْ حَدَّ الْقِيَاسِ ، وَخَرَجَتْ عَنْ سُنَنِ الْعَادَةِ ، وَظَهَرَ لِكُلِّ ذِي عَقْلٍ مِنْ تَأْيِيدِ اللَّهِ لِهَذَا الدِّينِ ، وَعِنَايَتِهِ بِهَذِهِ الأُمَّةِ ، وَحِفْظِهِ لِـلأَرْضِ

الَّتي بَارَكَ فيهَا للْعَالَمينَ – بَعْدَ أَنْ كَادَ الإِسْلاَمُ أَنْ يَنْثَلم وكَرَّ الْعَدُوُّ كَرَّةً فَلَمْ يَلْو عَـــنْ ، ، وَخُذلَ النَّاصرُونَ فَلَمْ يَلْوُوا عَلَى ، وَتَحَيَّرَ السَّائرُونَ فَلَمْ يَـــدْرُوا مَـــنْ .. ، ولاَ إِلَـــى .. ، وَانْقَطَعَتْ الأسْبَابُ الظَّاهرَةُ ، وَأَهْطَعَتْ الأَحْزَابُ الْقَاهرَةَ وَانْـــصرَفَتْ الْفئَـــةُ النَّاصـــرَةُ ، وَتخَاذَلَتْ الْقُلُوبُ الْمُتَنَاصرَةُ ، وَثَبَتَتْ الْفئَةُ النَّاصرَةُ ، وَأَيْقَنَتْ بالنَّصْرِ الْقُلُوبُ الطَّـــاهرَةُ ، وَاسْتَنْجزَتْ منْ اللَّه وَعْدَهُ الْعصَابَةُ الْمَنْصُورَةُ الظَّاهرَةُ ، فَفَتَحَ اللَّهُ أَبْوَابَ سَمَوَاته لجُنُـــوده الْقَاهرَة ، وَأَظْهَرَ عَلَى الْحَقِّ آيَاته الْبَاهرَةَ ، وَأَقَامَ عَمُودَ الْكتَاب بَعْدَ مَيْله ، وَثَبَتَ لوَاءُ الدِّين بقُوَّته وَحَوْله ، وَأَرْغَمَ مَعَاطسَ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالنِّفَاق ، وَجَعَلَ ذَلكَ آيَةً للْمُؤْمنينَ إِلَـــى يَـــوْم التلاق ، فَاللَّهُ يُتمُّ هَذه النِّعْمَةَ بجَمْعِ قُلُوب أَهْلِ الأيمَان عَلَى جهَاد أَهْلِ الطُّغْيَان ، وَيَجْعَـــلُ هَذه الْمنَّةَ الْجَسيمَةَ مَبْدَأً لكُلِّ منْحَة كَريمَة وَأَسَاسًا لإقَامَة الدَّعْوَة النَّبَويَّة الْقَويمَة ، وَيَـــشْفي صُدُورَ الْمُؤْمنينَ منْ أَعَاديهمْ ، وَيُمَكّنُهُمْ منْ دَانيهمْ وَقَاصيهمْ .

وَالْحَمْدُ للَّه رَبِّ الْعَالَمينَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدنَا مُحَمَّدٍ وَآله وَصَحْبه وَسَلَّمَ تَسْليمًا .

قَالَ الشَّيْخُ رَحمَهُ اللَّهُ كَتَبْت أَوَّلَ هَذَا الْكتَاب بَعْدَ رَحيلِ قازان وَجُنُوده لَمَّا رَجَعْـــت منْ مصْرَ في جُمَادَى الآخرَة ، وَأَشَاعُوا أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ منْهُمْ أَحَدٌ ، ثُمَّ لَمَّا بَقيَتْ تلْكَ الطَّائفَةُ اشْتَغَلْنَا بالأهتمَام بجهَادهمْ وَقَصْدَ الذَّهَاب إلَى إخْوَاننَا بحَمَاة ، وَتَحْريضِ الأمَـــرَاء عَلَـــى ذَلكَ ، حَتَّى جَاءَنَا الْخَبَرُ بانْصرَاف الْمُتَبَقّينَ منْهُمْ ، فَكَتَبْته في رَجَب وَاللَّهُ أَعْلَمُ ، وَالْحَمْدُ للَّه وَحْدَهُ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى أَشْرَف الْخَلْقِ مُحَمَّدٍ وَآله وَصَحْبه وَسَلَّمَ تَسْليمًا كَثيرًا إلَى يَوْم الدِّين .

****

المحتويات

مقدمة التحقيق ٣

التعريف المؤلف ١٠

النص المحقق لرسالة ابن تيمية ١٣

فتنة التتار ١٣

عهود الله في كتابه وسنة رسوله تنال آخر الأمة كما نالت أولها ١٤

دأب الكافرين من المستأخرين كدأب الكافرين من المتقدمين ١٥

وجه الاعتبار من حادثة الأحزاب ١٦

غزوة بدر أول غزوة ظهر فيها المسلمون على صناديد الكفار ١٨

النفاق الأكبر ٢٠

النفاق الأصغر ٢١

سورة براءة وتسمياتها ووصف المنافقين فيها ٢٢

حقيقة الجهاد في سبيل الله ٢٧

مرض القلب ٣١

المنايا محتومة ٣٦

أصناف المثبطين عن الجهاد ٣٧

المنافقون بين أمرين ٤١

نصح شيخ الإسلام للسلطان في محاربة التتار ٤٣

توقيت كتابة الرسالة وهزيمة التتار وانصرافهم ٤٥

* * * *


رقم الإيداع: ٢٠٠٨/٢٩٩٣